وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«١٩»

ابن حزم القرطبي



د. محمد رضوان الداية

الهيئة العامة السورية للكتاب

ابن حزم القرطبي

الهيئة العامة السورية للكتاب

ابـن حزم القرطبي

(٣٨٣ هـ - ٩٩٤ م، ٤٥٦ هـ - ١٠٦٤ م)

تأليف: د. محمد رضوان الداية

رسوم: فـواز سـلامـة

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

ابن حزم القرطبي / تأليف محمد رضوان الداية ؛ رسوم فواز سلامة .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م .- ١٠٤ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ١٩)

١- ٩٢٢ : ابن حزم، علي د ٢- العنوان
٣- الداية ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

« ١٩ »

« كان واحداً من أعظم عمالقة الفكر الإنسانيّ على امتداد تاريخه الطَّويل »

د. الطّاهر مكي(*) في مقدّمة تحقيقه كتاب «طَوقُ الحمامة في الأُلفة والأُلاّف» ص ٣٤.

(*) أستاذ في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ومن أشهر الباحثين في التُّراث الأندلسي وأكثرهم عناية بابن حزم.

الهيئة العامة السورية للكتاب

هذا الكتاب

يُلقي هذا الكتاب الضّوء على أحد أعلام الفكر والعلم والفن في الحضارة العربية الإسلامية عامة وحضارة الأندلس خاصّة. وعلى رغم بُعد الزّمن بيننا وبينه (نحو ألف عام تقريباً) وما جرى على الثقافة الأندلسية من أحداث مُدمِّرة، ورغم إحراق بعض كتب ابن حزم في حياته (ظلماً وعدواناً) وضَياع بعضها الآخر، لقد بقي من تراث ابن حزم قدرٌ كبيرٌ، في أغراضٍ شتّى، هو كافٍ للدّلالة على شخصيّته، وتبيين ملامح فكره، والدّلالة على سعة أُفقه، وتنوع إبداعاته، وعلى تركه أثراً كبيراً في الحضارة العربية الإسلاميّة، والفكر العالمي.

وكان ابنُ حزم يُغرِّد - في زمانه - في سرب الأندلسيين بمشاركته في قضايا أدبية وفنية وثقافية، وتاريخية وعلمية يقل جدل خصومه فيها، وغرّد كثيراً خارج سربه بإعلانه

آراءه ونظريّاته ومواقفه في شؤون كثيرة من الرأي والسياسة والفنّ والفقه وشؤون متعددة في مناحي الحياة ممّا لا ينسجم مع فكر الأكثريّة ومواقفهم.

وهكذا، كان أبو محمد بن حزم علامةً بارزةً جداً في تاريخ الفكر الأندلسي، ونموذجاً فذاً للرجل الأندلسي الذي يتعايش مع مشكلات الحياة والسياسة والمجتمع ومع تردّداتها وتوابعها عليه، وينهض بما يعتقد أنّه حقٌ في الحياة عامة، وفي فنون الآداب والعلوم والسياسة والرأي،ويحافظ على اجتهاداته، واختياراته في الفقه والأصول والأحكام والفِرَق والملل،ويَمضي في تدريس منهجه ومؤلّفاته وإن اعترض عليه المُعترضون.

وكان لسانه، وهو يناقش، وقلمه وهو يكتب: أحَدّ من شفرة السكّين، جهراً بما يعتقده صواباً، ومناظرةً علنيّةً مكشوفةً يدعو إليها المريدين له، والمخاصمين على حدّ سواء.

وابن حزم كما يوصَف في الدّراسات العربيّة والأجنبيّة رجل موسوعي فإن دائرة اهتمامه واسعة، والعلوم والفنون والقضايا التي عالجها في كتاباته كثيرة متنوعة، لقد كان من

الرجال الكبار الذين عرفهم تاريخنا الحضاري من سعة الاطلاع، ومن النظرة الثّاقبة، واللّمحة الذّكية، والآراء الناضجة وكان قادراً كما أثبت المؤرخون والدّارسون قديماً وحديثاً على التأليف والتصنيف، وعلى تقديم الكتب القابلة للانتشار والرّواج، وكتبه الباقية المطبوعة: يتلقاها القارئ بشغف وتتوالى طبعاتها، ويكثر امتداد الأيدي إليها من العلماء والباحثين من جهة، ومن الطلبة والدارسين من جهةٍ أخرى.

وثبت اسمُ ابن حزم أيضاً في أئمّة المذاهب الإسلاميّة الرئيسيّة، فإن ابن حزم يُعدُّ من كبار رجال مذهب الظاهر، وتعدُّ كُتبه أشهر مؤلفات هذا الفقه، حتى كأن ابن حزم هو المؤسّس الرئيسي له، والناطق الأول باسمه.

وسوف يرى القارئ الكريم من جوانب شخصية ابن حزم جوانب: الفقه، والأُصول، والحديث، والتّاريخ، والأنساب، والمنطق، والبلاغة، والشعر، وفلسفة الحبّ، واللغة، والنحو، ومقارنة الأديان، والفلسفة، والأخلاق، والجَدل، والسّياسة... إلى مشاركات في موضوعاتٍ أخرى.

وكُتب ابن حزم الباقية من الكتب المقروءة، وكتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاّف) من الكتب التي تتكرر

طباعتها في الأقطار العربية وظهر له نحو عشرين طبعة، وما يزال (طوق الحمامة) في الكتب الرّائجة المطلوبة من القرّاء...

ابن حزم شخصيّةٌ تستحق أن تُعْرَف، وكُتبه من التراث الباقي الذي يستحق أن يقرأ. إنّه كما قال عنه أحد الباحثين «صورة أندلسية».. بل أقول إنّه من أشد الصور الأندلسية نصاعة وبراعة، وتفرّداً، وخصوصيّة، وذكاءً، وعبقريّة.

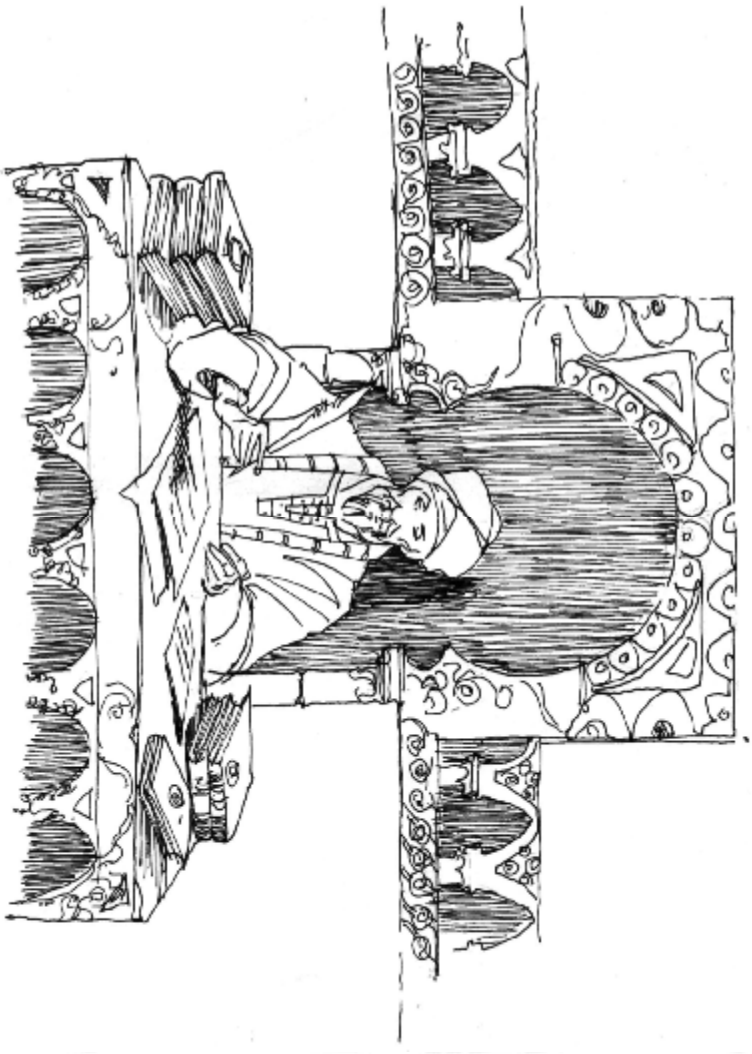
د. محمد رضوان الداية

الهيئة العامة السورية للكتاب

مدخل

١) شخصية تاريخية

ابن حزم العالِمُ الإمام الفقيه، اللّغوي، المؤرخ، الأديب، الكاتب، الشّاعر، الجدلي، المنطقي المؤلف، والوزير السياسي الجريء، والمناضل في سبيل حرية الرأي، إلى درجة مواجهة السُّلطة: لقي من المؤرخين والباحثين قديماً وحديثاً عنايةً واسعةً جِدّاً، لقد اختلفوا في بعض أموره وتعددت آراؤهم في القضية الواحدة، لكنهم جميعا اتفقوا على ذكائه، وغزارة علمه، وكثرة مؤلفاته، وتعدد مواهبه، وصدق لهجته مع نفسه ومع الآخرين، وثبات مواقفه على اختلاف العصور السّياسية التي استظل بظلها. وعلى رغم عوادي الزمان بقي من تراث ابن حزم عددٌ كبير: من الكتب والرسائل ووصلت آراؤه كما قرّرها، وكُتبه التي دافع فيها عن مواقفه في الحياة، أو أوضح فيها المذهبَ الظاهري (أحد المذاهب الفقهيـــة الكبرى) الذي صار هـــو أبرز



ممثليه، وصارت كتبه هي المعتمدة له في أنحاء الدنيا قديماً وحديثاً.

وحياة ابن حزم غنيّة جدّاً بالأَحداث، وهي متشابكة العناصر، وهي ليست ساذجة (بسيطة غير معقدة)، كما قال أ. محمد أبو زهرة في مقدمة كتابه عن ابن حزم[1] وهي تختلف عن حياة الفقهاء الذين دَرَسهم من قبل، فابن حزم «طراز آخر: فأنت تجده في الأدب ناثراً فنياً ممتازاً لا يقل عن أي كاتب من كُتَّاب عصره وبلده، وربما امتاز بجودة الفكرة مع جودة الديباجة (الأسلوب) وجمال الصورة البيانية، وهو فوق ذلك السّياسي الذي نشأ في بيت الوزارة، وكان له هو نفسه شأنٌ في الوزارة ثم هو المحدّث، والفقيه، والمؤرّخُ. وكل تلك نواح في صميم نفسه، وإن كانت المقادير مختلفة، وهي متمازجة، تعاونت فكوَّنت تلك الشخصيّة العبقريّة»[2].

وامتزاج حياة ابن حزم بالسياسة أو تأثره بها وبمعطياتها، جعلت الكلام على العصر ورجاله ودويلاته مجارياً الكلام على ابن حزم في حياته، وعلومه، وتنقّلاته.

(١) ابن حزم حياته وعصره وآراؤه الفقهية - نشر دار الفكر العربي - القاهرة ص: ١٠.
(٢) المرجع السابق: ١٠.

٢) عناصر المُجتمع وأدوارها السِّياسية على أيّام ابن حزم القرطبي

يرد في هذا الكتاب في استعراض حياة ابن حزم،والظروف المحيطة بها سياسياً واجتماعياً عدد من المفردات لابد من إيضاحها دون تطويل:

١- **الأمويون**: هم أمراء الأندلس منذ أيام عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل) الذي دخل الأندلس ١٣٨هـ/٧٥٥ م وصار أميرها واستمر حتى ١٧٢هـ / ٧٨٨م (تاريخ وفاته). ثم تلقّبوا بالخلافة من أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، حكم من ٣٠٠-٣٥٠ هـ. وأعلن الخلافة سنة ٣١٦ هـ لما تسمّى رأس الدّولة الفاطمية بلقب الخليفة ضارباً عرض الحائط بلقب الخليفة الذي كان يحمله العباسيّون.

واستمر الأمويون إلى سنة ٤٢٢ هـ، وآخرهم هو هشام الملقب بالمعتد. وكانت عقيدة ابن حزم السياسية أنّ وحدة الأندلس

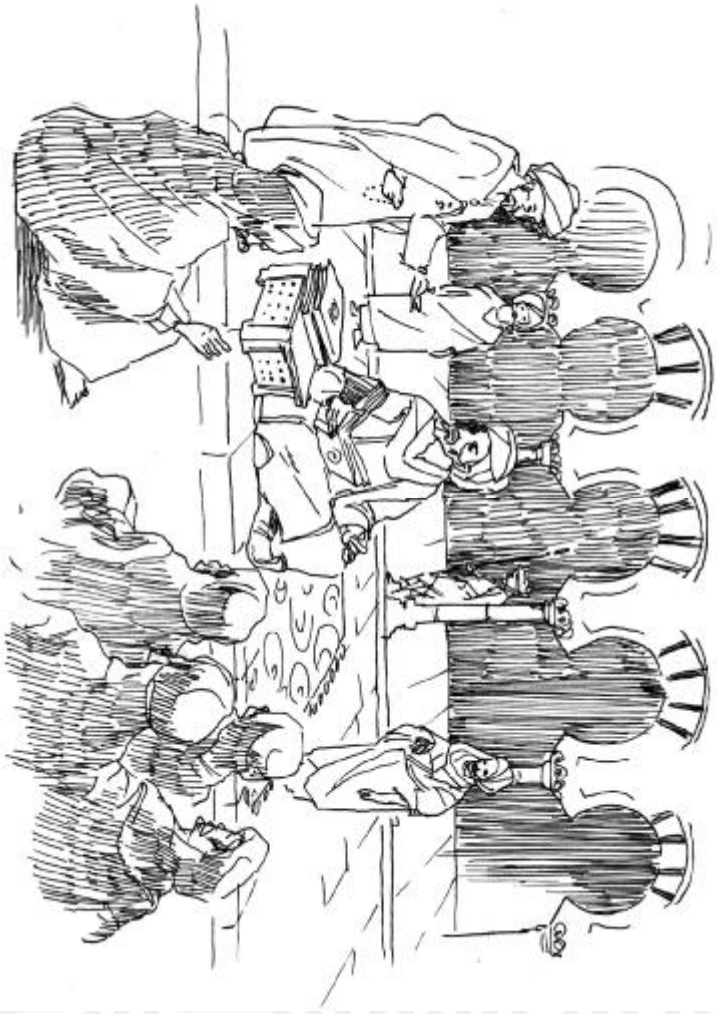
بقيادةِ أُمَوِيٍّ هي ضمان للأندلس من الانهيار والاندثار (على الأقل في تلك الحقبة الحرجة التي صارت أقرب إلى السّواد).

٢- **الطوائف**: «دول الطوائف» عبارة أطلقت على الدويلات الهزيلة (وكلها كان هزيلاً) التي نشأت على أنقاض الدّولة الأموية. وقد حاربهم ابن حزم بلسانِه وقلمه بعد أن اعتزل العمل السّياسي المباشر.

وكانوا لعنةً على الوجود العربي في الأندلس كلّه. وقد أصابه الضَّيم أيامهم فتغرّب قسراً، وأحرقت كتبه في إشبيلية أيام المعتضد بن عبّاد.

٣- **البربر**: كانوا من أسبق العناصر البشريّة التي دخلت الأندلس، بدءاً من حملة طارق، ونجدة موسى بن نصير. وقد تولوا الولايات أيام الحكم الأموي، لكنهم شاركوا بعد ذلك في دويلات الطّوائف. وكان لهم أثر (دور) في أحداث الفتنة (بين ٣٩٩ هـ إلى نهاية الدولة الأموية ٤٢٢ هـ)، «وكان لهم ضلع في الفتن التي أفضت إلى (أوصلت إلى) سقوط الخلافة القُرطبية الأمويّة، واستأثرت جماعة منهم بالأقاليم الجنوبية على عهد ملوك الطوائف»[١].

(١) الإسلام في إسبانية - د. لطفي عبد البديع: ٣٢.



٤ - **الصّقالبة**[١]: كان الجغرافيون العرب يطلقون هذه التسمية على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر (أو بحر قزوين) بين القسطنطينية وبلاد البلغار. ثم اكتسبت مدلولاً خاصاً في الأندلس فصارت تُطلق على:

١ - الأسرى الذين كانوا يقعون في أيدي الجرمان ويبيعونهم إلى المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية.

٢ - وأطلقت على الأسير من أوربة أو من إسبانية ذاتها.

- وكانوا ينخرطون في سلك الجندية، أو يقومون بالخدمة في القصور بعد خصيهم، وكان لليهود معامل للخصي في فرنسة كما نقل د. لطفي عبد البديع عن المستشرق دوزي[٢].

وكان الصقالبة في الأندلس ينشّؤون نشأة خاصة، ويدربون على الفروسية ويعلمون العربية حتى إتقانها تماماً.

ووصل عددهم أيام عبد الرحمن الناصر إلى نحو ١٤ ألف صقلبي. وتولّوا المناصب الهامّة. وكذا كانت حالهم أيام الحَكم المستنصر. واشتهر منهم: فائق وجؤذر، وكان لهما دورٌ هام في عهده وعهد ابنه هشام المؤيد.

(١) الإسلام في إسبانية - د. لطفي عبد البديع: ٣٦.

(٢) المرجع السابق: ٣٧.

قال د. عبد البديع، وكانوا شؤماً على الخلافة القرطبية كما كان البربر شؤماً كذلك، لقد خاضوا غمار الفتن.. ونصروا فريقاً على فريق.

وصارت لهم حصصٌ في ممالك الطّوائف بشرق الأندلس خاصة، في بلنسية مبارك ومظفر وفي طُرطوشة: لبيب، وفي دانية أبو الجيش مجاهد، وفي ألمريّة خيران وزهير.

- ولابن حزم أخبارٌ أيام خَيْرَان العامريّ، ودخل عنده السجن كما سيأتي في سيرته.

٥- **العرب**: وهم في الأندلس، كما في المشرق أصلان كبيران: القحطانية (عرب الجنوب) والعدنانية (عرب الشمال).

وكان بنو أُمية، وبنو حمود (حكموا قُرطبة وإشبيلية سنوات قليلة في عصر الفتنة) من العدنانية.

وكان المنصور بن أبي عامر الحاجب (الحاكم الفرد: الدكتاتور) من القحطانية اليمنيّة.

لقد كان تحطيم العصبية العدنانية على يد ابن أبي عامر من أسباب ضعف الدولة وانهيارها.

وقد توزع هذان الجِذْمان (الأصلان) العربيّان في بلاد الأندلس[1]. وأعاننا ابن حزم على معرفة منازل كثير منهم (معظمهم) في أثناء كتابه: (جمهرة أنساب العرب).

٦ - **العامريُّون**: تُطلق على محمد بن أبي عامر وولديه اللّذين تسلّما منصب الحاجب بعده تباعاً. وكانوا أشبه بالملوك منهم بالوزراء.

وأُطلقت على بعض الفتيان الذين خدموا عند المنصور محمد ابن أبي عامر وأولاده على سبيل النسبة والشهرة. ولكنهم ليسوا من بني عامر مثل خيران العامري، وهو صقلبيّ.

وكان لتسلّط العامريين على الدّولة الأموية أثرٌ مدمّر على الدّولة من جهة وعلى التماسك الأندلسي ووحدة البلاد من جهة ثانية. ومن الصّحيح ما يوصف به (المنصور) في كتابات بعض المؤرخين من المستشرقين والعرب بأنه (ديكتاتور) أي حاكم مُطلق.

(١) وينظر بحث: منازل اليمنيّين في الأندلس، في كتاب (أندلسيّات شامية) من تأليف محمد رضوان الداية – دار الفكر – دمشق.

٧- **اليهود**[١]: أسهم المسلمون حين دخلوا الأندلس في إنقاذ المجتمع آنذاك من الظلم الذين كان سائداً.وإنقاذ اليهود الذين كانوا في الأندلس عند الفتح من الاضطهاد الواقع عليهم. وصاروا جزءاً من نسيج الأندلس الاجتماعي، وسرعان ما تعلموا العربية وأتقنوها واستفادوا منها وصنعوا لأنفسهم نحواً وصرفاً وعروضاً على المثال العربي، وكانت لهم أهميّةً اقتصاديةً، فقد اشتغلوا بالتجارة ونالوا حظاً وافراً، وتسلموا المناصب في الدولة، حتى درجة الوزارة مثل ابن النغريلة الذي سلمه باديس بن زيري أمور مملكة غرناطة.

وقد ردّ ابن حزم عل كتاب ألّفه (ابن النغريلة) وقطّع اعتراضاته، وسفه آراءه المغلوطة في رسالة بقيت، وهي مطبوعة عنوانها: الردّ على ابن النغريلة.

ونبغ فيهم شعراء وكتّاب وأطباء وفلاسفة، وهم يعدون من ثمرات الفكر العربي الإسلامي، وفيهم موسى بن ميمون

(١) د. لطفي عبد البديع (المرجع السابق) ٣٣- ٣٥.

القرطبي: أكبر فلاسفة اليهود في ذلك العصر، وقد استفاد من كتب ابن طفيل وابن رشد، وغيرهما[١].

ونَعِمَ اليهود في أثناء الحكم الأموي، وفي ظل دول الطوائف بعصر ذهبيّ من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية...

٨- وهناك **المولّدون**[٢]: وهم الذين وُلدوا من آباء مُسلمين ونشؤوا على الإسلام، وكانوا يؤلفون على عهد أمراء بني أمية، الكثرة الغالبة من السكان، ومنهم تكونت جماهير الأندلسيّين وأهل البُيوتات منهم.. ومن خلفاء الأندلس من كان يجري في عروقه الدم الإسباني، فجدّة عبد الرحمن الناصر الأميرة إنيجا INIGA ابنة فرتون غرسيس ملك بَنْبَلُونة (في شمال شرقي الأندلس)... الخ.

(١) قال الدكتور عبد البديع ص ٣٤: «فتراثهم – يعني يهود الأندلس – ثمرة من ثمرات الثقافة العربية التي تغذوا ونهلوا منها..» وانظر كتاب: موسى بن ميمون لإسرائيل ولفنسون. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٩٣٧.

(٢) المرجع السابق: ٢٤.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الأول

مَجْريات حياة ابن حَزم

«حياةٌ كلها نِضالٌ . . . تلك حياةُ هذا العالِم القَويّ . . .» .

محمد أبو زهرة
من كتابه ابن حزم ص: ٩

الاسم، والأصل، والنسبة :

إذا قرأت اسم (ابن حزم) هكذا دون زيادة تعريف وتوضيح، فالمراد رجل واحد هو عَلاّمة زمانه: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم. وعُرف غيره من العلماء والأدباء أيضاً بابن حزم مع زيادة تعريف وتفريق، كما سأوضح عند فقرة (أسرة بني حزم).

وفي أصل أسرة ابن حزم - عن المؤرخين - قولان:

أحدهما: أنه ينتمي إلى أسرة فارسية دخلت الإسلام أيام بني أمية في دمشق.

والثاني: أنه من أسرة محلية من إسبانية القديمة دخَلت في الإسلام بعد الفتح العربي الإسلامي للأندلس.

والذي أثْبَتَهُ تلميذُ أبي محمد بن حزم، وصاحبُه، وراوية كُتبه، وحافظُ أشعاره: الحميدي الأندلسي هو ما يأتي[1]:

«علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب، أبو محمد، أصله من الفرس، وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى (ينتمي بالولاء) ليزيد بن أبي سفيان».

(١) جذوة المقتبس: ٢٩٠ - ٢٩١ لأبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحُميدي الأندلسي، المتوفَّى (٤٨٨هـ - ١٠٩٥م).

- وهو من أهل جزيرة ميورقة وأصله من قرطبة. ولد سنة (٤٢٠ هـ ١٠٢٩م) تتلمذ على ابن حزم وغيره ورحل إلى المشرق – مصر والشام والحجاز - وحج ٤٤٨هـ ولحق بالعراق فاستقر هناك في بغداد وفيها كانت وفاته. وهو من علماء الحديث والفقه والأدب من كبار العلماء الأندلسيين وله عدد من المؤلفات، منها هذا (جذوة المقتبس) ألفه في العراق.

- وميورقة جزيرة أندلسيّة في البحر المتوسط، وإلى جانبها مينورقة ويابسة وكان العرب يسمونها الجزر (أو الجزائر) الشرقية.

وكان يزيد بن أبي سفيان (ﷺ) من كبار قـــادة الفتوح، ومن أوائل الوُلاة: استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني فراس، وكانوا أخواله، ثم استعمله أبو بكر (ﷺ) على جيش وسيّره إلى الشام وخرج معه يشيعه (يودعه) راجلاً . ولما صار عمر خليفة ولاه فلسطين، ثم ولي دمشق وخراجها، وهو أخو معاوية (ﷺ). توفي بدمشق سنة (١٨ هـــ - ٦٣٩ م) وهو والٍ. وكان يزيد من أكبر رجالات بني أمية شجاعةً وحزماً.

فجدّ ابن حزم الأعلى دخل في الإسلام على يد (يزيد) المذكور، وانتمت أسرة آل حزم بالولاء إلى بني أميّة. على عادة مشهورة كانت من الانتماء إلى قبيلة عربية بالولاء محبة في العرب، وانخراطاً في الحياة الجديدة.

وقال المؤرّخ المراكشي صاحب كتاب (المُعجب في تلخيص أخبار المغرب) وهو يَسْرُدُ نسب ابن حزم (ص: ٩٣):

«أبو محمد الذي يحدث عنه الحميدي: هو أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد ين حزم بن صالح بن خلف بن معدان ابن سفيان بن يزيد الفارسي، مولى يزيد بن أبي سُفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي. قُرِئ عليَّ نسبُه بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه».

وزاد بعد هذا:

أصل آبائه الأدنين من قريةٍ من إقليم لَبْلَة من غرب الأندلس (هي الآن في البرتغال). سكن هو وأبوه قرطبة، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر.. الخ يعني قرية مُنْتَ لِيْشَم.

ولعلَّ جدّه الأعلى الذي دان بالولاء ليزيد بن أبي سفيان (**y**) أخذ اسم (يزيد) بدلاً من اسمه الفارسي. وتبديل الأسماء كان يحصل لمناسبات متعددة. وهذا الافتراض الممكن الوقوع يردّ على أصحاب النظرية الأُخرى التي تنفي عنه النّسب الفارسي فقد سأل أحدهم أين الاسم الفارسي في نسبه؟[1].

فجدّه (يزيد) المذكور أول مَنْ أسلم من أجداده، وولاؤه في قريش (بني أمية منهم) وجده خلف هو أول من دخل الأندلس من آبائه.

وقد أَوْغَل عدد من الباحثين الإسبان والعرب وغيرهم في البحث عن أصل ابن حزم وتشدّد الإسبان في نسبته إلى البيئة الإسبانية، وأسرفوا في ذلك دون ضرورة، ودون فائدة أيضاً.

(١) هو المؤرخ الأندلس الشهير ابن حَيّان صاحب كتاب (المقتبس).

ونقبل نحن الرواية التي رواها هو عن أصل أسرته، وما ورد عند تلميذه الحُمَيدي: نزيل بغداد في ما بعد[1].

حركة الحياة :

ولد (أبو محمد) عليّ بن احمد بن سعيد بن حزم قي قرطبة عاصمة الخلافة الأموية المروانية سنة ٣٨٤ هـ-٩٩٤م، في بيت الوزير، واليد اليمنى لمحمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) حاكم الأندلس المفرد، أحمد بن سعيد. فهو ابن أسرة ثريّة (ذات غنى ً) وسَرِيّة (ذات مكانة اجتماعية عالية).

وتحدث ابن حزم عن طفولته الهادئة، المَحُوطة بالمربّيات والمعلمات في رعاية والده وهو أَديب كاتب بارع، وزملاء والده الذين كان يلقاهم في دارِهِ في مُنية المغيرة، القريبة من (الزاهرة) الضاحية الفاخرة التي بناها المنصور العامري محاكاة، ومضاهاة للزّهراء التي بناها عبد الرّحمن الناصر، وكان لنشأته في ظل الجو النّسائي أثر في ذوقه، وأدبه، وشعره.

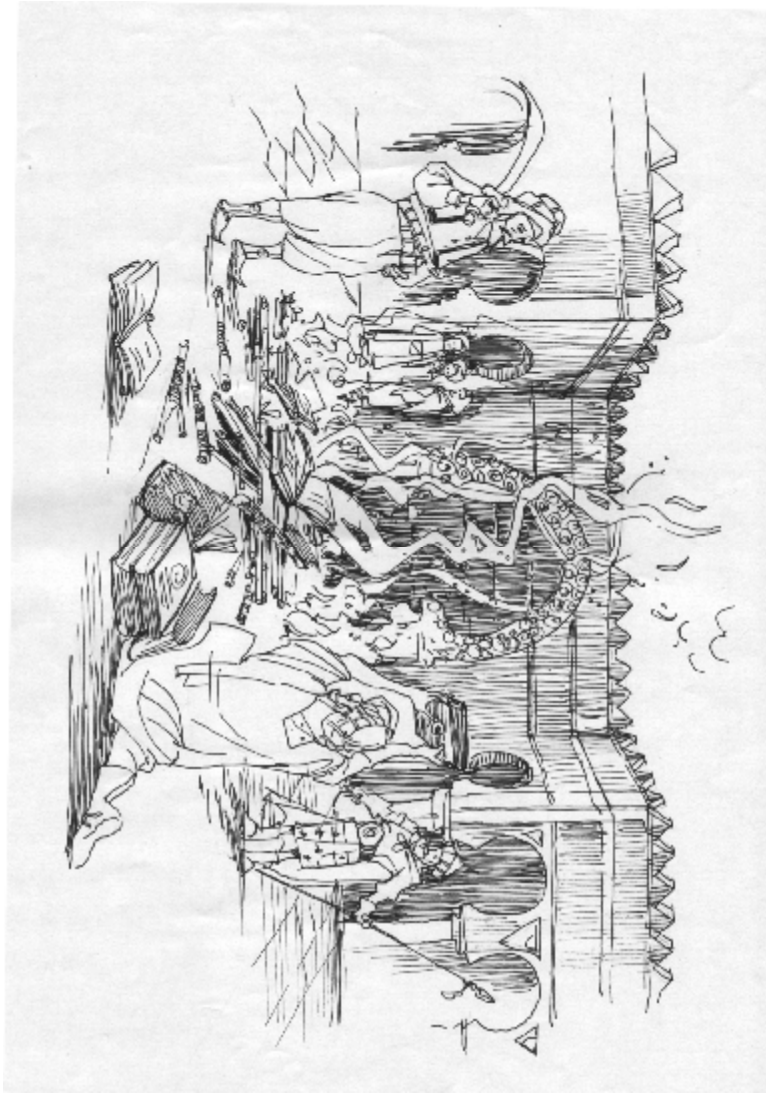
(١) انظر تطويلاً لهذا في كتاب: «الأدب الأندلسي من منظور إسباني» - ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي – نشر مكتبة الآداب – القاهرة، ١٤١٠ - ١٩٩٠ ص ٥٩ – ١٤٥.

وأخبرنا ابن حزم أنه في عيد الفطر لسنة ٣٩٦ هـ وقد كان ابن اثنتي عشرة سنة حضر مجلس الحاجب المظفر (ابن المنصور بن أبي عامر الذي توفي سنة ٣٩٢ هـ)، ولقي (ضنى) العامريّة كريمة المظفر ونظم لها شعراً باقتراحها من ذلك الوقت المبكر.

وانتظم ابن حزم من فترةٍ مبكرة من حياته مع عدد من الفتيان "رفقة من الأَصفياء" في صحبة ومودّة، ذكر بعضهم في (طوق الحمامة): يتميزون بالأناقة، ويرتدون أفخم الثياب في أحدث الأنماط: يفتنهم الجمال، وتستهويهم الطّبيعة، وتطربهم الموسيقى، ويفضلون الأدب ويتبعون فيه منهجاً ثوريّاً: كان هؤلاء كما تخيّلهم المستشرق الإسباني غارثيا غومث: يرتدون ملابس بيضاء، ويحاورون بين أروقة بيضاء، يُغرمون بالإوَزّ، ويعشقون النّساء الشّقراوات[١]..

وكان على رأس هؤلاء الفتيان، فالشباب: أبو عامر بن شُهَيد الأديب الكاتب الشاعر ، زميل ابن حزم ، وصديقه الصَّدوق الذي

(١) دراسات عن ابن حزم، وكتابه: طوق الحمامة – د. الطاهر مكي – مكتبة وهبة بالقاهرة - القاهرة - ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م –ص ٧٨.



توفي سنة ٤٢٦هـ - ١٠٣٥ م وهو صاحب الرّحلة الخياليّة إلى عالم الجنّ: رسالة التوابع والزّوابع: المبتكرة.

أحداث متسارعة:

بدأت الأحداث في قرطبة تتسارع. وتلقي بظلالها على الأندلس، وتؤثر مباشرة في حياة أسرة ابن حزم التي ارتبطت بالسياسة: الولاء للأمويّن، والخدمة في دولة العامريين. ففي ١٦ صفر ٣٩٩هـ-تشرين الأول ١٠٠٨م توفي الحاجب[١] العامري (الثاني في هذه الأسرة): ولقبه المظفر، وحلّ محلّه في الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بـ(شنجول). وكانت مواهبه قليلة وتصرفاته رعناء، وسرعان ما اغتيل في قرطبة بعد شهور قليلة في رجب ٣٩٩ هـ - آذار ١٠٠٩م. ثم عُزِل الخليفة المستضعف هشام (الثاني)، وبويع لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، الذي تلقب بالمهدي، وذلك في جمادى الآخرة من سنة ٣٩٩هـ الموافق شباط ١٠٠٩ م.

(١) منصب الحاجب في الأندلس يعدل منصب الوزير في المشرق، وهو يعدل اليوم منصب رئيس الوزراء مع صلاحيات واسعة.

ونتج عن هذه الأحداث المتلاحقة في ما يخصّ بني حزم إعفاء والده من الوزارة، وانتقال الأسرة من (مُنية المغيرة) إلى دارهم القديمة في الطرف الآخر من قرطبة في (بلاط مُغيث). وكان الغوغاء قد انتهزوا فرصة الفوضى وخربوا منية المغيرة الحي الذي كان حي كبار موظفي البلاط.

وشهد ابنُ حزم مع والده في شعبان ٣٩٩ هـ - نيسان ١٠٠٩ "مسرحية" دفن جثمان قيل إنه لهشام المؤيّد، وترك وصفاً مؤثراً لذلك. ثم إن هشاماً ظهر بنفسه بعد شهور معدودة، وبويع له بالخلافة، وبقي في الخلافة ثلاثة أعوام غير شهرين وأيّام.

وفي شهر ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ - تموز ١٠١٠ م اغتيل محمد المهديّ بعد خلافته الثانية، وبويع لهشام المؤيّد.

ولم يرجع والد ابن حزم إلى مكانته في الدّولة، كما هو متوقّع، لاختلافه مع القائد الصقلبي (واضح)، وكان - كما نقول اليوم - مركز نفوذ قوياً. ووقف أحمد بن سعيد (والد بن حزم) ضد الصقالبة مع بقايا العامريين، ولم ينجحوا في مَسْعاهم، وزاد هذا من سوء موقف أحمد بن سعيد وعَرّضه للتضييق والملاحقة.

وفاة أخيه أبي بكر ووالده:

وفي هذه الأثناء سقط أبو بكر بن أحمد (شقيق أبي محمد بن حزم) صريع الطاعون في ذي القعدة ٤٠١ هـ - حزيران ١٠١١ م. وبعد عام واحد توفي الوالد أحمد بن سعيد (في ذي القعدة ٤٠٢ هـ - حزيران ١٠١٢ م) وصار على الشّاب علي وهو ابن ١٨ عاماً أن يحمل أعباء الحياة، وأن يواجه الموقف بكامله.

وكانت الأحداث في ظل هذه الفتنة العارمة (التي بدأت ٣٩٩ هـ مع شنجول العامري) تتلاحق، وتتسارع، وتُلقي بظلالها السوداء على السّياسة والاقتصاد، والثقافة، والإدارة، والعمران، والطمأنينة، والسّلامة الشخصية.وصار النّهب والسّلب والإفساد هو سيد الموقف.

ابنُ حزم في المَرِّية:

لاقت قرطبة عاصفةً أُخرى في شوال ٤٠٣ هـ - أيار ١٠١٣م فقد صارت تحت سلطة البربر الذين أعانوا سليمان بن الحكم بن سليمان (الأمويّ) الذي تلقب بالمستعين للمرة الثانية، ليبقى في منصبه نحو شهرين، ولتنهب قرطبة وتزداد شدة مأساتها، ومأساة

أهلها. وفي أخبار هذه النكبة أن البربر (الذين اقتحموا المدينة) أتوا على بيت ابن حزم في بلاط مغيث كاملاً.. وأعقب هذا نزوحه عن قرطبة إلى مدينة المريَّة في المحرم سنة ٤٠٤هـ - تموز ١٠١٣م وأقام فيها إلى سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م.

كانت المرِيّة تحت حكم أحد الصّقالبة (خيران) من فتيان العامريين، ودخلها أبو محمد بن حزم مع صديقه أبي بكر محمد بن إسحاق. لقد صارت هذه المدينة ملاذاً للفارّين من قرطبة وغيرها ممن هم من أنصار الأمويين والعامريّين.

إزعاج ابن حزم إلى حصن القصر (تغريبُه):

تحالف (خيران) مع طامع آخر بالمُلك هو علي بن حمود وساعده في دخول قرطبة في محرم ٤٠٧ هـ - تموز ١٠١٦م وصارت المرية موالية للإدريسي (ابن حمّود) والبربر الذين آزروه. وصار ابن حزم وصاحبه شخصيّتين غير مرغوب فيهما، فاعتقلهما خيران أوّلاً (في السّجن) ثم غَرَّبهما عن المرِيّة إلى حصن القصر (قرية من مقاطعة مالقة). وقد نفى ابن حزم عن نفسه تهمة التآمر التي لُفِّقت له لطرده من المدينة، ولم تتم الاستجابة له.

إلى «مغامرة» جديدة :

وعاد الأمل يُراود ابن حزم في عودة السُّلطة إلى الدولة الأمويّة، وسمع بخروج أموي في بلنسية يطالب بالخلافة: هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك من أحفاد الناصر. حرَّضه خيران العامري نفسه بعد أن " غيّر جلده " وبَدّل ولاءه. واجتمع هذا الثّائر الذي تلقّب بالمُرتضى مع مؤازريه في مدينة (شاطبة). وكان من المفهوم أن يكون ابن حزم في جُملة هذا الجيش. وبعد أن توجّه المرتضى إلى قرطبة عن طريق غرناطة التي كان يحكمها بنو زيري، تراجع خيران وحليفه منذر التجيبي حاكم سرقسطة عن مؤازرة المرتضى، فانهزم أمام زاوي بن زيري، وفرّ، ثم اغتيل. وكان هذا سنة ٤٠٨ هـ وضاع الأمل الموعود بعودة الدّولة الأمويّة التي يناصرها ابن حزم بقوة.

- وعاد ابن حزم ليكون في الأسرى إلى أن أطلق سراحه.

- وانتقل ابن حزم إلى مدينة شاطبة، يتابع حياته على المحورين: العلم من جهة ، والأمل بعودة الأندلس الموحّدة، على يد بني أمية من جهةٍ ثانية.

إلى قرطبة، ومنصب الوزارة... فالسّجن!

في رمضان ٤١٤ هـ - كانون الأول ١٠٢٣ م، وبعد انتهاء حكم الأدارسة: علي، وقاسم، ويحيى: اختير عبد الرحمن بن هشام ليكون خامس الخلفاء الذين حملوا هذا الاسم، وتلقب بالمستظهر. وقد وُصف بالذكاء واليقظة وبقسط وافر من الأدب والشّعر والخطابة، فأحاط المستظهر نفسه بجمهرة من رجال الفكر فيهم ابن حزم وابن شهيد وأبو المغيرة بن حزم والشاعر حسان بن مالك. ورجع الأمل إلى القُلوب بنهضة قرطبة، والأندلس من كبوتها.. لكن الأمور سارت في اتجاه آخر. ومرّت الفتنة على قرطبة وخليفتها الجديد بعد نحو شهر ونصف، وقُتل الخليفة في ذي القعدة ٤١٤ هـ - كانون الثاني ١٠٢٤ م. ودخل ابن حزم السجن من جديد، ولم تدم وزارته أكثر من أسابيع معدودة. وقد تحدّث عن سجنه أيّام المستكفي (حكم من ٤١٤ – ٤١٨ هـ) بمرارة شديدة. ولم تكن أيام هشام المعتد (٤١٨ – ٤٢٢ هـ) بصالحة لإعادة المجد القديم. وانتهت الدولة بخروجه من قرطبة وابتداء دول الطوائف[١].

(١) انظر المدخل (في هذا الكتاب) الفقرة ٢.

تغيير المسار!

وكان لابدّ لابن حزم من أن يعتبر بما جرى، وأنْ يُدرك أن أمله وأمل الأندلسيّين بعودة الدّولة الواحدة الجامعة صار ضعيفاً جدّاً .. وهكذا نفض ابن حزم يده من السياسة، وتوجه كليّاً إلى العلم الذي عرف حلاوته منذ صغره، لكنّه الآن صار العناية الأولى والأخيرة، والهدف الأسمى. ولكن لسان ابن حزم وقلمه لم ينسيا أبداً خطر ضعف الدولة، وانهيار الوحدة، وظهور الدويلات الهزيلة التي لا يصلح واحد من زعمائها للحكم ولا للإدارة، فتعرض منهم للإيذاء والتغريب.

ابن حزم (وطوق الحمامة):

في سنة ٤١٨ هـ وفي مدينة شاطبة، وابن حزم في نحو الرابعة والثلاثين من عمره ألّف كتابه (طوق الحمامة في الأُلفة والأُلاّف) بناء على رغبة صديق بعث إليه رسالة في هذا الخصوص من مدينة المرية. (وقد نَبّهتُ على الطّوق في هذا الكتاب، واخترت نماذج منه) وانطلق ابن حزم في طريق العلم بأقصى طاقة يستطيعها.

مناظرات ومؤلّفات ورحلات :

كان ابن حزم في مطلع حياته على مذهب أهل الأندلس (في الغالبية العُظمَى) وهو المذهب المالكي، ثم مال إلى قول الشافعية، وبعد مرحلة من الدرس، والمتابعة، ونُضج الفكر الذاتي اختار أن يكون من أهل المذهب الظاهري[1]، ولم يلبث أن صار من أكابر المنظّرين له.وكتبه الآن هي المعتمد الأول لدراسة المذهب، ومعرفة آرائه واجتهاداته.

وتعرّض ابن حزم - وقد عاد إلى قرطبة - لإزعاجات كثيرة، بعضها قويّ جداً من جماعات مختلفة من الفقهاء، وأهل الحكم، وغيرهم ممن صدمهم ابن حزم بقوة مناقشته، وحماسته، واتساع باعه في علمه وشدته في جدله وحِجَاجِه، وممن حسدوه، ووشوا به إلى الحاكم.

(١) الظاهرية هم أتباع داوود بن علي الأصفهاني. ومن أئمة الظاهرية: ابن حزم الأندلسي. وسموا بالظاهرية لأنهم يأخذون بظواهر النصوص الشرعية، ويرفضون استنباط العلل منها. (معجم لغة الفقهاء – أ. د. محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي – دار النفائس – بيروت – ط ١ – ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م - ص: ٢٩٥).

وهكذا تنقّل ابن حزم في الأندلس إمّا داعياً إلى فكره الظاهري وآرائه الكلامية، وفكره الثقافي عامّة، وإما هارباً بنفسه من ضغط خصومه ومن غضبة الحاكم عليه، بين قرطبة والمريّة وشاطبة وطلبيرة وميورقة....

ونجده سنة ٤٣٠ هـ في جزيرة ميورقة عند الوزير أحمد بن رشيق الذي كاد يدين بالولاء لبني شُهيد القرطبيين، وكان قد تخرج على يَدِ علماء قرطبة.

مجادلة أبي الوليد الباجي:

وعلى كثرة مجادلاته، ومُحاوراته في أنحاء الأندلس أثبت التاريخ مجادلاتٍ ومحاوراتٍ له مع عالم أندلسي عاش مدةً في الشرق، ورجع إلى الأندلس، وكان في ميورقة حين دخلها ابن حزم، هو أبو الوليد الباجي. وكان خصماً عنيداً لابن حزم، واعترف له أبو محمد بالفضل والعلم، وقال في رسالته عن فضل الأندلس «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب[١] إلاّ مثل أبي الوليد لكفاهم».

(١) أحد أئمة المالكية في المشرق.

موقفه من دُويلات الطوائف:

لم يكن ابن حزم صاحب الفكر "الوحدوي" كما نقول اليوم ليرضى عن الدُّويلات الهزيلة التي نشأت على أنقاض الدولة الأموية. فقد كانت دويلات هزيلة ضعيفة، يقاتل بعضهم بعضا، واستعان بعضهم - بالعدوّ - على بعض. وفرّطوا في أجزاء من الوطن، وتهاونوا في صيانة البلاد والعباد. وكان أكثرهم، بل جميعهم في نظره حكام سَوْء: تركوا الدفاع عن الوطن وانشغلوا بملذّاتهم، وزادوا في الضرائب، وتآمر بعضهم على بعض، وضيعوا أحكام الشريعة.. وهاجم الفقهاء الذين كانوا يسوّغون للحكام أهواءهم وتصرفاتهم، ومن أقواله: «... ولا يغرّنكم الفُسّاق والمنتسبون إلى الفقه، اللاّبسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيّنون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم!..»[1].

وكان من أشد حكام دول الطوائف على ابن حزم: باديس صاحب غرناطة الذي ترك أمور دويلته في يد وزيره ابن النغريلة اليهودي، والمعتضد بن عباد الذي أمر بإحراق كتب ابن حزم. وفي تلك المناسبة قال ابن حزم قطعته المشهورة:

(١) من رسالته: التلخيص لوجوه التخليص في: رسائل ابن حزم ٣:١٧٣.

فإن يحرقوا القرطاسَ لم يُحرقوا الذي

تضمَّنَه القرطاسُ، بل هو في صَدري

يسيرُ معي حيــث اســتقلّتْ ركــائبي

وينزلُ إِن أنزلْ، ويُدفنُ فــي قبــري!

وقد أوردتُ هذه القطعة، في مختارات الكتاب من تراث ابن حزم.

إلى موطن الأُسرة القديم :

انتهى المطاف بابن حزم إلى بلدة أسرته القديمة في الجانب الغربي من جزيرة الأندلس: قرية مُنْتَ ليشم من نواحي لَبْلة. وكان حول ابن حزم عدد من طلاّبة ومحبّيه. واستمرّ يُدرس، ويؤلف، ويرفع صوت بلسانه وقلمه حتى وافاه الأجل سنة ٤٥٦ هـ.

انصراف ابن حزم إلى العلم :

تقرّر عند دارسي ابن حزم،على اختلافهم وتنوّعهم أنه أُوتي مدارك عاليةً، وذهناً ثاقباً، ومواهب متعدّدة، فانصرف إلى العلم يساعده أنه كان في مراحل حياته الأولى من المُحاطين بالرعاية

التامة من أبيه وأهله كأبناء الطبقة العالية في المجتمع، وحين ذهب عن أسرته وهج السّلطان (مات أبوه ولم يستطع التلاؤم مع شرذمة المتسلّطين على قرطبة وغيرها من مدن الأندلس بعد نشوب الفتنة: (الحرب الأهلية). بقي له من أملاك والده ما جعله يستقلّ عن الحكام والولاة وسواهم، ويتابع بحوثه ومؤلفاته وإلقاء دروسه حيثما حلّ من الدّيار الأندلسيّة.

لقد جعل ابن حزم حياته (عدا الفترات القليلة التي اشتغل فيها بالسّياسة) وقفاً على العلم منذ نعومة أظفاره (طفولته) فقد تلقّى عن العلماء (والسيدات المثقفات في الدار) علم الفقه والحديث وهو صغير، وتابع ذلك في عهد الفتوة ومقتبل الشباب: يصغي إلى العلماء، ويقرأ الكتب، ويذاكر الأصحاب. فلما اشتدّ عُوده، بدأ يؤلف، ويجادل ويناقش ويتابع القراءة، ويوسّع دائرة اهتمامه، وصار له تلاميذ ومريدون. ولنا كلام على هذا في فقرات أخرى من هذا الكتاب.

ونظراً لاستغراقه في طلب العلم، ونشره محاضرةً وتأليفاً كان أصحابه الذين سجّل التاريخ بعض أسمائهم من العلماء والأدباء والمفكرين دون الحكام والمتنفذين. وكانت كتبه ورسائله بهذه الكثرة وهذا التنوع. وقد مرّ الكلام في ذلك.

ومن هذه الآفاق، وما يماثلها في سيرة ابن حزم قال الأستاذ أبو زهرة في وصفه: " إنّ أبا محمد بن حزم عاش للعلم، وجاهد للعلم، وخلـّـده العلم بين الخالدين"[١].

صبره على الحياة الخَطِرة القلقة، وإبداعه في أثناءَ ذلك :

القارئ والباحث قد يهمّه معرفة الجوّ الذي ألف فيه المؤلف كتابه أو كتب بحثه من ظروف اجتماعية، أو نفسيّة، أو حياتيّة، ولكن الأكثر أهميةً جودة المكتوب وصحته، وجِدته، وابتكارُه، وحُسن صياغته، ونفعُه وفائدته، ولكنّ قارئ كتب ابن حزم، وهو يُدهش لبراعة المؤلف، وطول نَفسِه، وعمق فكره، وصدق لهجته، وحُسن عَرْضه لابد له من أن يتأثّر، ومن أن يقدّر ما كانت عليه حال ابن حزم وهو يكتب ويبحث ويناقش ويجادل، ويستنبط، ويردّ، ويؤرّخ، ويُبدع فقد ابتلي - في جملة ما أصابه وهو كثير - بطبقةٍ (مجموعة كبيرة) من الحاسدين، الواشين من العلماء أو أشباه العلماء، ومن بعض معاصريه، حتّى ابن عمه أبا المغيرة بن حزم[٢] تخلّى عنه في بعض الظروف، بل كان في

(١) ابن حزم - محمد أبو زهرة: ٩١.

(٢) ذكرته في أسرة ابن حزم من صدر هذا الكتاب.

جملة خُصومه. وهؤلاء الحاسدون والمبغضون سعوا به عند الحاكم أكثر من مرة، وفي أكثر من بلد.

وأورد هنا قطعة من كلامٍ له في (التّقريب لحدّ المنطق)[1] عن طلاّب العلم من جهة وطلاب المال والجاه من جهة أُخرى، قال:

«واعلمْ أنّك لا تُورث **العلم** إلا مَنْ يُكسبك الحسنات وأنت ميّت، والذكرَ الطيّبَ وأنت رميم[2]، ولا يذكّرك إلا بكل جميل، ولا تُورثه بعدك ولا تصحبُ في حياتك في طريقهِ إلاّ كلَّ فاضلٍ برّ. ولستَ تصحبُ في طلب **المال والجاه** إلاّ أشباه الثّعالب والذّئاب!».

وسَرَد خبر حبسه في عهد المُستكفي[3] وقال:

(١) رسائل ابن حزم ٤: ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٢) رميم: البالي من كل شيء.

(٣) خليفة مستضعف حكم في عصر الاضطراب، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر الأموي، تلقب بالمستكفي (٣٦٦- ٤١٧ هـ - ٩٧٦ – ١٠٢٥ م) وحكم سنة ٤١٤ هـ ودام حكمه ١٧ سبعة عشرة شهراً وغادر قرطبة ثم مات مقتولاً أو مسموماً ونقل الزركلي في ترجمته بعض ما قاله فيه ابن حزم (الأعلام ٦: ١٩١).

«إني كنت معتقلاً في يد الملقب المُسكتفي، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر في مُطْبق[١]، وكنتُ لا آمن قتله لأنه كان سُلطاناً جائراً ظالماً عاتياً[٢]، قليل الدّين كثير الجهل غير مأمون ولا مُتَثبّت[٣]، وكان ذنبنا عنده صحبتنا للمستظهر (عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار)[٤] وكان العيَّارون[٥] قد انْتَزَوا[٦] بهذا الخاسرعلى المستظهر فقتله، واستولى على الأمر، واعْتَقلنا حيث ذَكَرنا..».

وسرد ابن حزم خبراً مهماً عن أفكارٍ، وعن حلّ مشكلة عويصة جاءت إلى ذهنه في السجن، ثم قال:

(١) المُطْبِق: سجن يكون تحت الأرض.

(٢) العاتي: اسم فاعل من (عَتا): استكبر وجاوز الحد.

(٣) تَثبت في الأمر والرأي: تأنّى فيه، ولم يعجل.

(٤) حكم، خليفةً، مدة ٤٧ يوما من سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٤ م)، قال مؤرخون «كان عفيفا، رقيق النفس، حسن الفهم والعلم، أديبا بجيد الشعر، ختم به فضلاء أهل بيته» نقله في الأعلام ٣:٣٤١ وترجم له تلميذ ابن حزم، الحميدي في جذوة المقتبس: ٢٤.

(٥) العيارون جمع العيار: الذي يترك نفسه لهواها لا يردعها ولا يزجُرها.

(٦) انتزوا: وثبوا.

«وما ألّفنا كتابنا هذا وكثيراً من كتبنا إلاّ ونحن مُغَرّبون، مبعدون عن الوطن والأهل والولد، مُخافون مع ذلك في أنفسنا ظلماً وعدواناً». ثم أكّد: «لا نُسِرُّ هذا بل نُعلنه، ولا يمكن المُطالِب (الذي يجادلنا) إبطال قولنا في ذلك»[١].

في شخصية ابن حَزم[٢]:

هناك ثلاث مقوّمات رئيسية تدخُل في بناء الشخصيّة، وهي:

١ - عامل الذكاء، أو المقدرة العقلية؛

٢ - وعامل الاتّزان العاطفي، أو انتظام العمليّات الانفعاليّة؛

(١) رسائل ابن حزم ٤: ٣٤٥ – ٣٤٦

(٢) انظر تفصيلا في: ابن حزم: د. زكريّا إبراهيم،

: ابن حزم الكبير: د. عمر فروخ،

: ابن حزم صورة أندلسية: د. طه الحاجري،

: ابن حزم حياته وعصره وآراؤه الفقهية: محمد أبو زهرة،

: ابن حزم وكتابه طوق الحمامة – د. الطاهر أحمد مكي،

: ابن حزم الأندلسي ورسالته: في المفاضلة بين الصحابة –سعيد الأفغاني؛

: ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق – وديع واصف مصطفى.

٣- والبُعد الاجتماعي للفرد.

وحين يتحدّث علماء النفس عن (الشخصية) فإنهم يعنون بها في العادة مجموعة الصفات الجسمانية، والوجدانية، والعقليّة، والخلقية، على نحو يتكامل في شخص معين في بيئة اجتماعية معينة[١].

وانطلاقاً ممّا سبق، ومن خلال المعلومات المتوافرة عن ابن حزم يمكن القول: إنه كان يتمتّع بحافظة (ذاكرة) قويّة، مستوعبة، وبديهةٍ سريعة حاضرة، وقُدرة استدلاليّة هائلة. وبذلك شهد تلميذه وصاحبه الحميدي حين ترجم له، فقال: «ما رأينا مثله في ما اجْتَمع له من الذكاء وسُرعة الحفظ».

وكان ابن حزم على ذكاء حادّ موصوف، ومقدرة عظيمة على الملاحظة الدقيقة، وحرصٍ شديدٍ على الكشف عن الأسباب في ما وراء المسبّبات، ولم يكن يكتفي بملاحظة الوقائع، بل كان يبحث عن أسبابها. (وتجد كثيرا من هذا في كتابه: طوق الحمامة)

- ووُصف ابن حزم بالاستقلال في تفكيرِه، وهذا «نتيجة طبيعية لتلك العقلية المتفتّحة الحرة التي لم تكن تركن إلا إلى

(١) ابن حزم – زكريا إبراهيم: ٧٧.

أوّليات الحِسّ، وبديهيات العقل وما ارتدّ إليهما من براهين قاطعة»[١].

وتميّز ابن حزم بمزاج حادّ عنيف، وطبع عارم جارف، ويَرُدّ دارسو ابن حزم ذلك إلى ما واجهه من ظروف سياسية وحياتية، وإلى العَنَتِ[٢] الذي لقيه من عدد غير قليل من طبقة العلماء الذين حرّضوا بعض حُكّام الأندلس المعاصرين. وبالغ ابن العريف الأندلسي فقال: «كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقين» يشير إلى عُنفه في مقاومة خصومه، ولكن ما يجده قارئ كتبه من سماحة، وتبسُّط في القول، ولطف (كالذي تقرؤه في طوق الحمامة، وفي رسالة مداواة النفوس) يجعل تلك الأحكام القاسية على ابن حزم أحكاماً نسبية أو فيها مُغالاة «لقد كان صريحاً مع نفسه صريحاً مع غيره».

- ووصف ابن حزم نفسه بخَصلَتين هما: الوفاء الصحيح، وعزّة النّفس، ونظم في هذا شعراً فقال يذكر هاتين الخَلَّتين أو الخصلتين[٣].

(١) ابن حزم - زكريا إبراهيم: ٨٥.

(٢) المرجع السابق:٨٦.

(٣) طوق الحمامة: ٢٥٦.

[بحر البسيط]

لي خَلّتان أذاقاني الأســى جُرَعــاً

وَنغَّصا عِيشتي واســتَهْلكا جَلَــدي

كلاهمــا تَطّبينــي نحــو جبْلَتهــا

كالصَّيد ينشبُ بين الذّئب والأسدِ[١]

وفاءُ صدقٍ فما فارقْــتُ ذا مِقــة

فزالَ حُزْني عليــه آخِــرَ الأَبــدِ[٢]

وعــزّةٌ لا يَحُــلّ الــضّيمُ ســاحتَها

صرافةً فيــه بــالأموال والولــدِ[٣]

وقد كان في شخصيّة ابن حزم من العناصر الطيبة ما يجعله شديد الاعتداد بنفسه من الأصل الطيب، والهمة العالية، والمواهب المتعدّدة، ويسار العيش أو الاستغناء بالقليل ما يجعله

(١) اطّباه وطباه: دعاه دعاءً لطيفاً، واستماله إليه.

(٢) المقة: المحبة والمودّة.

(٣) يقول إنه عزيزٌ يأبى الضيم، ويدفع ثمن ذلك غالياً من الأهل والولد إذا اقتضت الحاجة.

قادراً دائماً على هذا الخُلق من الاعتداد بالنفس، والاستقلالية في الموقف.

وكان ابن حزم يتحرّى الصدق ويتجنب الكذب، ويحمل على مَنْ يتصف بصفة الكذب. وكان هذا دأبه في سلوكه الشخصي من جهة، وفي سلوكه العلمي من جهة أُخْرى، وروى من الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل يوماً هل يكون المـــؤمن بخيلاً؟ فقال نعم، قيل: فهل يكون المؤمن جباناً فقال نعم، قيل: فهل يكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا! وروى أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم «لا خير في الكذب».

وكما كان ابن حزم «مستقيم الرأي، صريح العبارة، سليم الفكرة كان أيضاً في سلوكه العملي عفيف النّفس، طاهر الذيل، بريء الساحة»[1].

وقد لخّص المستشرق بالتثيا أهم خصال ابن حزم فقال[2]: «كان رجلاً صادقاً، مخلصاً قويماً، ذا ديانة، وحشمة، وسؤدد. وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشّرف فوق الحياة نفسها، وكان

(١) ابن حزم – زكريا إبراهيم: ٩٨.

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي: ٢١٦.

مخلصاً لأصحابه يتفانى في سبيلهم لدوداً في خصومته، لا يصفَح ولا ينسى ثأره، ولوعاً بالسخرية من خصومه شديد الاعتداد بما أوتي من العلم، كريماً عفيفاً، وسَطاً في إيمانه...».

ابن حزم تجاوبَ مع روح العصر :

ومن أحسن المقدّمات للدخول إلى كتاب (طوق الحمامة) لمؤلفه الفقيه المؤرّخ والفنان الأديب، والمجادل الشديد ابن حزم كلام لفقيه ذواقة للأدب هو الأستاذ محمد أبو زهرة أحد علماء هذا العصر، فيه ملاحظة شديدة الأهمية، فقد قال إنّ ابن حزم كان أقرب علماء زمانه إلى روح العصر الذي كان فيه: «ولا شك في أن كل عالم بينه وبين عصره مجاوبة (تجاوب وائتلاف). ولقد وجدنا ابن حزم من أشد العلماء تأثراً بروح العصر، وانتفاعاً من ثمراته، وإن كانت المنازعة بينه وبين فقهاء عصره قائمة... وليست المجاوبة بين العالم والعصر أنْ يكون الوئام قائماً بينه وبين المعاصرين له من العلماء، فقد يكون المخالف أقرب إلى روح العصر من الموافق. وإنّ ذلك أوضح ما يكون في ابن حزم هذا، فهو أقرب إلى روح عصره من كل فقهاء زمانه، ألم ترَ أنه كتب في العشق والعشاق، وقد كان

عصره، وبلده، والخصب والحضارة، وما كانت عليه الأندلس، ثم فراغ النفس عند الكثيرين من أهل اليسار سبباً في الإكثار من القول في الغزل شعراً ونثراً.. فإذا جاء عالم، وكتب في العشق محلّلاً: يَرُدُّ الظواهر إلى أسبابها فقد جاوب روح العصر أكثر ممن تحرّج وتأثّم»[1].

على أن مزية التجاوب مع روح العصر ليست مقصورة على كتابه في الحب، فكتاباته الفلسفية الخُلُقيّة وتحليله للنفوس، وكتابه «مداواة النفوس».. كل هذه الكتب أو الرّسائل هي مجاوبات فكريّة بينه وبين روح الاجتماع في ذلك العصر، وروح السياسة والعلم فيه[2].

ابنُ حزم وحركة التأليف:

على الرغم من حياة ابن حزم التي كانت في جوانب كثيرة منها مضطربة ومن ظروف التنقّل، ومواجهة الخصوم، والدفاع

(١) ابن حزم: حياته وعصره وآراؤه الفقهية: ١٤ - ١٥. وتحرج: من الحرج، وتأثم: من الإثم. يعني ابتعد أولئك العلماء والفقهاء عن الاستجابة لروح العصر خشية الحرج والوقوع في الإثم من وجهة نظرهم.

(٢) المرجع السابق: ٩٢.

عن الرّأي، ومن وقوفِ بعض الحكام (كالمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية) ضده واسترضاء العامة وجمهرة من الفقهاء بمناوأته وإحراق كتبه، لم ينقطع عن التأليف وعن المحاضرة، وعن تربية جيل بعد جيل من مُحبّيه بمؤلفاته الكثيرة المتنوعة وبمحاضراته التي اشتهرت في زمانه في طول الأندلس وعرضها.

ويؤكد المؤرّخون الذين ترجموا له (كتبوا سيرة حياته مطولة أو مختصرة) والذين تناولوا الحركة الفكرية والعلمية في الأندلس أن ابن حزم كان من أغزر المؤلفين المفكرين نتاجاً من الكتب والرسائل والبحوث المدونة، لا يجاريه في هذا إلاّ الإمام الطبري (الفقيه المؤرّخ) في المشرق (٢٢٤-٣١٠ هـ - ٨٣٩ – ٩٢٣ م).

وقال صاعد الأندلسي[١] أحد مؤرّخي حركة العلم والفكر في الأندلس إن ولد ابن حزم واسمه: الفضل، وكُنيته أبو رافع أخبره قائلاً: «اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه في الفقه والحديث

(١) طبقات الأمم – صاعد الأندلسي (طبعة دار الطليعة – بيروت) – ١٩٨٥: ١٨٢ – ١٨٣.

والأصول والنِّحَل والمِلل وغير ذلك من التاريخ والنَّسب، وكتب الأدب والردّ على المعارضين نحو أربع مئة مجلد: تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. قال صاعد: وهذا شيء ما علمناهُ من أحد ممّن كان في دولة الإسلام قبله إلاّ لأبي جعفر بن جرير الطبري، فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً».

وقد أيّد هذا عددٌ من مؤرّخي الأندلس كابن حيان صاحب كتاب (المقتبس) والمراكشي صاحب (المُعجب) وتلميذ ابن حزم العارف به جيداً الحميدي صاحب (جذوة المقتبس).

ولاحظَ بعض الدّارسين المُعاصرين[1] أن أكثر كتب الطبري كانت في الفقه والأصول والتفسير والتاريخ، أما ابن حزم فكانت دائرة مؤلفاته أوسع من هذا بكثير. يريدون الإشارة إلى هذه المزيّة، وهي شخصية ابن حزم «الموسوعية» كما نقول اليوم.

(١) ابن حزم - د. زكريا إبراهيم: ٥٦.

مؤلفات ابن حزم

وصل إلينا شيء من كتب ابن حزم ورسائله (الكتب الصّغيرة) وفقد شيء آخر (أو هو مجهول المكان إلى الآن).

ومن الكتب المطبوعة:

- المُحلّى حققه أحمد محمد شاكر (القاهرة) وطبع بعد ذلك، وهو كتاب في الفقه على المذهب الظّاهري. ويرد اسمه مطوّلاً: «المحلّى في شرح المُجَلّى بالحجج والآثار» فهو شرح على موجز سماه (المجلّى).
- الإحكام في أصول الأحكام: نُشر بتحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة) وطبع طبعات أخرى.
- الفصل في الملل والأهواء والنّحل، طبع أول مرة في المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ (مصر)، وأعيد طبعه..
- حجّة الوداع، طبع في دمشق ١٩٥٩ م بعناية ممدوح حقي.
- جمهرة أنساب العرب، نُشر في دار المعارف، حققه ثانية عبد السلام هارون فيها.

Ÿ ونُشرت كتب ورسائل كثيرة، نشرات متفرقة ثم جمعها وحققها د. إحسان عباس، وأصدرها في أربعة أجزاء[1] وفيها في الجزء الأول:

- طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف؛
- رسالة في مداواة النفوس؛
- رسالة في الغناء المُلهي؛
- فصل في معرفة النفس بغيرها.

Ÿ وفي الجزء الثاني:

- رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء؛
- رسالة في أمهات الخلفاء؛
- رسالة في جُمَل فتوح الإسلام؛
- رسالة في أسماء الخلفاء، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها.

(١) صدرت الأجزاء الأربعة عن المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – بيروت - ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م.

Ø وفي الجزء الثالث:

- رسالة في الرد على ابن النغريلة اليهودي؛
- رسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سُئل فيهما سؤال تعنيف؛
- رسالة في الرد على الهاتف من بُعد؛
- رسالة التوقيف على شارع النجاة؛
- رسالة التلخيص لوجوه التخليص؛
- رسالة البيان عن حقيقة الإيمان؛
- رسالة في الإمامة؛
- رسالة في حكم من قال إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين.

Ø وفي الجزء الرابع :

- رسالة مراتب العلوم؛
- التقريب لحد المنطق؛
- رسالة في ألم الموت، وإبطاله؛
- الرد على الكندي الفيلسوف؛

- تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأُصول.

انتهت الرسائل .

- كتاب «الدرة في ما يجب اعتقاده» وهو كتاب تابع لكتب الأصول. نشر في القاهرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ووزّعته مكتبة التراث.

- وقال المحققان إن كتاب (المحلى) لابن حزم أورد معظم مسائل هذا الكتاب فيه مابين ٢ – ٦٥ من الجزء الأوّل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني

آفَاقُ ابنِ حَزْم العلميَّةُ والأدَبيَّةُ

«... في قرطبة ظَهر ابنُ حزم صاحب التآليف الكثيرة في كل فنّ، وهو من أفذاذ الأعلام المعدودين في تاريخ الأندلس، وإن المتأمل في مؤلفاته وما تحويه من مادّة غزيرة ليرى بوضوح أنّ ذلك النِّتاج الحافل لا يمكن أن يصدر إلا عن حضارةٍ بلغت من التقدم مبلغاً عظيماً».

المستشرق الإسباني (بالنثيا) في كتاب:
تاريخ الفكر الأندلسي ص: ٢١٧ – ٢١٨.

ابْنُ حَزْمٍ والتّاريخ :

لم تكن آثار ابن حزم (كتبه ورسائله) في التاريخ كثيرة، بالقياس إلى غزارة مؤلفاته، ولكنها كانت ذات أهميّة، خصوصية ودقّة. لقد كان مؤرخ الأندلس المختص رجلاً من أهل عصره هو ابن حَيّان صاحب كتاب (المقتبس) وغيره من الكتب.

فقد قدّم ابن حزم ملخّصات تاريخية لبعض الموضوعات على منهجه، وألف في الأنساب (وهو فن يمكن إلحاقه بعلم التاريخ).

وعدّ ابن حزم (التاريخ) أحد العلوم السبعة عند كل أمة، ومنها (**عِلْمُ أخبارها**). **ولعلم التاريخ عنده مهامّ وفوائد منها**[1]:

- التزهيد في الدنيا بمعرفة تقلبها بأهلها، ومصاير الملوك الظالمين، الذين لم ينفعهم حشدهم للأموال والجيوش،
- والقُدوة الحسنة إذ يقف المرء على حمد المتقين الأخيار للفضائل فيرغب فيها، ويسمع ذمّهم للرذائل..
- والعبرة بالفناء ودُثور (خراب وزوال) الحصون والمدائن، وتعاقب الأجيال..
- وتمييز الصواب من الخطأ في الأخبار..
- والمتعة والرياضة (تسلية النفس) والتنشيط.

وكان ابن حزم مؤهّلاً لأن يكون مؤرّخاً، لو شاء الاستطراد في كتابة التاريخ والتوسّع فيه، فقد كان - كما مر في ترجمته - قارئاً نهماً، شديد البحث عن المعرفة، كثير الاطلاع والمتابعة، وكان بين يديه القدر الكافي من تواريخ المشرق والأندلس معاً.

(١) مقدمة الجزء الثاني من رسائل ابن حزم بتحقيق د. إحسان عباس: ١٠.

وكان ابنَ بيئته وعصره، مقرّباً من مركز صناعة القرار (كما نقول اليوم) وأفاد من والده خبرةً واسعةً، ومعلومات قيّمة ممّا يُعَدّ في أسرار الحكم، وزواياه الخفيّة، فقد كان وزيراً مدّةً طويلةً من الزمن.

وأضاف د. إحسان عباس إلى ذكاء ابن حزم، واطلاعه، وصبره على البحث أمرين اثنين هما: القدرة على التصوّر الصحيح، والنقد الدقيق، وجعل هذه العوامل فعالة في توكيد شخصية المؤرخ البارع عند أبي محمد بن حزم[1] وضرب أمثلة كثيرة، والاهتمام بالتاريخ عند ابن حزم أداة لا غاية في ذاته،وهو يفيد في أمرين اثنين: التربية النفسية الأخلاقية، وخدمة الشريعة.

وقد مرّ، قبل هذا، أن ابن حزم انغمس مدة في الحياة السياسية، وتلقّن دروسها ثم انتبه إلى عبثية السياسة وقت الفتنة، وما وراءها أيضاً مع دول الطوائف.. فقد عاش لحظات انحدار التاريخ آنذاك في نفسه. وانصرف إلى التأليف وإلى العلوم الشرعية خاصّة. واكتفى من التاريخ، في مؤلفاته، بما يحقق الغاية التعليمية التي جعلته يلخّص ما لابدّ للدّارس من معرفته:

(١) هناك أمثلة كثيرة أوردها د. إحسان عباس من مؤلفات ابن حزم للدلالة على ذلك. انظر رسائل ابن حزم ٢: ١٢-١٦.

فلخّص السيرة النبوية، والفتوح الإسلامية، وأسماء الخلفاء في المشرق والمغرب (الأندلس) ولخص أنساب العرب والبربر. واهتم بإثارة انتباه قارئه بالعجائب والنوادر في التاريخ كالذي نجده في رسالة (نقط العروس)[١].

وقد استمر ابن حزم على موقفه من تقييم الدولة الأموية في المشرق والأندلس تقييماً عالياً، وتعرض لأذى زعماء الفتنة (الحرب الأهلية) من العامريين والصّقالبة وزعماء دول الطوائف (مثل بني زيري وبني جهور) لأنه كان يجاهر بأفضلية وحدة الأندلس تحت ظل الدولة الواحدة (الأموية) ويعارض التشرذم الذي آلت إليه البلاد بعد سقوط الأمويين (أو إسقاطهم) وتنبّأ بأن ما جرى هو أول ملامح النهاية. وقد ربط د.إحسان عباس هذا بحب ابن حزم لوطنه الأندلس

وقال: «حين احتجبت الأموية، ولم يبق منها إلا الحنين الواله إلى عهودها شحذت إلى درجة الإرهاف مشاعر الحب للأندلس،

(١) رسالة «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» - نشرها د. شوقي ضيف أولاً في مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة - وكان اسمها عند نشر الرسالة جامعة فؤاد الأول) ثم نشرها د. إحسان عباس في الجزء الثاني من رسائل ابن حزم بين الصفحة ٤١ – ١١٦.

وهو حب يتجلى لدى ابن حزم في إبرازه للفكر الأندلسي، ودفاعه عن مآثر بلاده، ويتجلى بقوّة في رسالته في فضل الأندلس...» [1].

ومن كتبه في التّاريخ:

١ - **جوامع السيرة**[2]: وهو موجز للسيرة النبوية من استقصاء نسبه إلى وفاته صلى الله عليه وسلم.

٢ - **جمهرة أنساب العرب**[3]: وهو من أجمع كتب النسب العربية، وأهم ما ألف في النسب في الأندلس. وصار مصدراً للمؤرّخين من بعده كابن خلدون وغيره.

وهو ليس مجرد ذكر أنساب بل كان ابن حزم يستطرد إلى فوائد تاريخية وأدبية وسياسية، وهو كتاب مهمّ في بيان أحوال القبائل العربيّة التي انتقلت إلى الأندلس وأماكن نزولها واستقرارها.

(١) المصدر السابق ٢٤ - ورسالة ابن حزم في فضل الأندلس هي في كتاب نفح الطيب للمقري ٣: ١٥٦ – ١٧٩.

(٢) طبع في دار المعارف بمصر بتحقيق د. إحسان عباس ود. ناصر الدين الأسد.

(٣) طبع في دار المعارف بمصر بتحقيق عبد السلام هارون.

٣ - **حجة الوداع**[١]: معلوم أن ابن حزم لم يتح له أداء فريضة الحجّ. ولهذا عالج موضوع حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروفة بحجّة الوداع – لأنها آخر حجة حجّها – بأن كان مع تلك الحجة بخياله ووجدانه منذ خروجه من المدينة المنورة إلى وقت العودة إليها. وحرص على إيراد الأحاديث النبوية المتعلقة بهذه الحجّة.

٤ - **المفاضلة بين الصّحابة**[٢]: تحدّث فيه عن معنى الفضل، والعوامل والأسس التي يتم على أساسها التفاضل، وذكر فضل الأمة (كنتم خير أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس) وفَضلْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفضل الأنبياء، وفضل أمهات المؤمنين بعدهم، ثم رتَّب تفضيل الصحابة في تفصيل وتعليل على منهجه الاحتجاجي بالشواهد والأدلة.

ومن الرسائل التابعة للجانب التاريخي عند ابن حزم[٣]:

(١) طبع في دار اليقظة العربية (الدمشقية) في بيروت. (طبع ثانية ١٩٦٦).

(٢) نشره أول مرة الأستاذ سيد الأفغاني ١٩٤٠ م وأعاد نشره ١٩٦٩ م في دار الفكر بيروت. ثم نشره د. إحسان عباس في رسائل ابن حزم.

(٣) في الجزء الثاني من رسائل ابن حزم (تحقيق د. إحسان عباس)

- رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء؛
- رسالة في أمهات الخلفاء؛
- رسالة في جمل فتوح الإسلام؛
- رسالة في أسماء الخلفاء؛
- رسالة في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس.

ابن حزم والمنطق:

تأخّر اهتمام الأندلسيّين بالمنطق والفلسفة[1]. وكانوا بصفة عامّة تحت ظل فكرة شائعة هي أن هذين الفنّين أو العلمين ينافيان الشريعة. وكانت هناك معاداة عامة لكل ما كان يعرف بعلوم الأوائل. ولكنّ فضول ابن حزم العلمي، وعقله المتنوّر دعاه إلى قراءة المنطق فتلمذ لمشرقيّ وافد هو أبو الفتوح ثابت الجرجاني، وأندلسي من طبقة أساتذته هو ابن الكتاني الطّبيب، فقرأ المنطق، وما لبث أن ألف كتابه: «التقريب لحدّ المنطق،

(١) بدا ذلك في عهد الحكم المستنصر (حكم من ٣٥٠ – ٣٦٥ هـ) وكان من أعلم خلفاء المسلين غربا وشرقا، وكانت مكتبة قرطبة على زمانه أكبر مكتبة في العالم.

والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية»[1] فابن حزم يُعدّ في الطبقة الثالثة من المهتمين بالفلسفة والمنطق بعد جيل أساتذته، والجيل الأول الذي علّمهم.

وأشار محقق (التقريب) إلى احتمال أن يكون حافز ابن حزم على تجاوز الأفكار السائدة حول المنطق والفلسفة في الأندلس هو معاداة الأندلسيين بصفة عامة لعلوم الأوائل. فقرر أن يدرس الفلسفة والمنطق، ومن ثَمّ "قَوِيَ" لديه الشعور بأن العلوم الفلسفية لا تنافي الشريعة، بل إن المنطق نفسه يمكن أن يُتَّخذ معياراً لتقويم الآراء الشرعية وتصحيحها، وكان اتجاهه إلى مجادلة أهل المذاهب والنِّحَل الأخرى يفرض عليه أن يتدرَّع (يتقوّى) بقوة منطقية في المناظرة والجدل.

وهاتان الغايتان كانتا من أوّل العوامل التي حَدَتْ به إلى التأليف في المنطق ليثبت عدم التنافي بينه وبين الشريعة، وليعزّز به موقفه العقلي إزاء الخصوم ويضع فيه القواعد الصّحيحة للجدل والمناظرة، ويبين فيه حِيَل السفسطة والتشغيب[2].

(١) حققه إحسان عباس. وطبعته الأخيرة في: رسائل ابن حزم ٤:٩٣ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق ٤: ٣٤.

وفي التّقييم العام فإن كتاب التقريب لحدّ المنطق، كما قرر محققه ظاهرة مهمّة في تاريخ الفكر الإسلامي بالأندلس، وفيه حقائق هامة تتناول طبيعة الحياة الفكرية في المجتمع الأندلسي، وفيه كثير مما يتّصل بابن حزم ونظرته إلى الحياة والناس،وهو مقدّمة للإمام الغزالي في المشرق الذي احتذى حذو ابن حزم فاستمد أمثلة المنطق من الفقه[١].

وابن حزم في كتاب (التقريب) هذا وفي سائر كتبه كان مؤمناً أشدّ الإيمان بجدوى الفلسفة والمنطق، فلم يكن من المستغرب على رجل مثله أنْ يعمدَ إلى تبســيط المنطق الصوري، وتوضيح مُسْتَغلقِهِ[٢]، وتقريب معانيه إلى السواد الأعظم من الناس[٣].

وتوضيح «المستغلق»[٤] كان هدف ابن حزم الرئيسي من تأليف كتاب التقريب، وبالمناسبة فإن ابن حزم جعل أنواع المؤلفات سبعة لا ثامن لها: وهي :

(١) التقريب (المرجع السابق) ٤: ٤٨.

(٢) المستغلق: الغامض، العَصِيّ على الفهم.

(٣) ابن حزم – زكريا إبراهيم. ١٠٩ – ١١٠.

(٤) أي توضيح المبهم، وغير الواضح.

١- شيءٌ لم يُسبق المؤلف إلى استخراجه فيستخرجه (يعني يكون هو صاحبه، ومبتكره)

٢- أو شيء ناقص فيكمله ويتمّه؛

٣- أو شيء باطل أو خاطىء فيصحّحه؛

٤- أو شيء مستغلق فيشرحه؛

٥- أو شيء مُسْهَبٌ (مطوّل) فيختصره (دون أن يحذف منه شيئاً يخل بمقصده)؛

٦- أو شيء متفرّقٌ فيجمعه؛

٧- أو شيء منثور فيرتّبه؛

وجعل عمله في المنطق من النّوع الرّابع.

وقد سارت تقسيمات ابن حزم هذه في الكتب من بعده، وإلى هذا اليوم.

وفي مقدمة كتاب الإحكام في أصول الأحكام كلام على المنطق عَرضه عرضاً لطيفاً، فقد قال[1]: إن الله عز وجل ركّب في النفس

(١) الإحكام في أصول الأحكام – طبعة دار الحديث – القاهرة – دون تاريخ ص: ٨.

الإنسانية قُوّة مختلفةً (ذات جوانب متعدّدة) فمنها عدل يزيّن لها الإنصاف.. ومنها فهم يُليح (يوضح) لها الحق من قريب... ومنها **قوّة التمييز** التي سماها الأوائل: المنطق، فجعل لها خالقها بهذه القوة سبيلاً إلى فهم خطابه، وإلى معرفة الأشياء على ما هي عليه، وإلى إمكان التّفهم الذي به ترتقي درجة الفهم، ويتخلّص من ظلمة الجهل؛ فبها تكون معرفة الحق من الباطل ... الخ.

ابن حزم وفَنّ الجَدل:

عقد ابن حزم باباً للكلام في رتب (درجات وأنواع) الجِدَال[١] وكيفيّة المناظرة تحدث فيه عن فكرة المناظرة وأنواعها بحسب السائل والمسؤول والموضوع المطروح للمناقشة وتحدّث عن أثر العلم والثقافة وسعة الاطلاع في إعطاء المناقش المجادل قوّة حقيقيّة، لأن القصد من الجَدل عند ابن حزم هو الوُصول إلى الحقيقة بعيداً عن المماحكة أو المهاترة أو ما شابه ذلك[٢] وقد قال في جانب من هذا الباب[٣]:

(١) رسائل ابن حزم ٤: ٣٢٥.

(٢) المماحكة: المنازعة، والمهاترة من هاتَرهُ: سابّه بالباطل من القول.

(٣) رسائل ابن حزم ٤: ٣٤٣ – ٣٤٤.

«واعلم أنّ ما ذكرنا من الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدّة البحث، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال،والنظر في طبائع الأشياء وسماع حجة كل محتج والنظر فيها وتفتيشها، والإشراف (الاطلاع) على الديانات والآراء والنّحَل والمذاهب والاختيارات واختلاف الناس وقراءة كتبهم..».

واشتهر ابن حزم بقدرته " الهائلة " على الجَدل، وبطول باعه في المناقشة، وصلابة عوده في مضمار التحدّي الفلسفي[١].

ومنهجه في الجدل ألاّ يبدأ خصمه بمهاجمته أو تسفيه[٢] رأيه، أو الطعن في شخصه، بل هو يحاول سرد حججه، مورداً أقاويل الخصم كما هي، ثم يكشف ما فيها من خطأ أو بُطلان.. واضعاً نصب عينيه دائما الوصول إلى الحقّ كما سلف من الحديث.

وقد ميّز ابن حزم بين الجدل (أو الجدال) والسَّفسطة[٣]، وطلب التمييز بين الجدل الممدوح والجدل المذموم، فالجدل المحمود تكون غايته الوصول إلى الحقائق، والمذموم له وجهان:

(١) ابن حزم – زكريا إبراهيم: ١٣١.

(٢) المرجع السابق: ١٣٢.

(٣) ابن حزم – زكريا إبراهيم: ١٤٩، وأصله في الإحكام في أصول الأحكام ١: ٢٦.

مَنْ جادل بغير علم، ومن جادل ناصراً للباطل بشغب وتمويه بعد ظهور الحق. وذَكر الآية الكريمة (ومِنَ النّاسِ من يُجادل في الله بغير علم ولا هدىً ولا كتابٍ منير).

لقد اشترط ابن حزم للجدال: الكثير من الشروط الفكرية، والنفسيّة والأخلاقية، فجعل منه جهداً عقلياً شاقاً يستلزم اتباع منهج خاصٍّ ويتطلب التجرد عن الأهواء، ويقتضي الأخلاق لوجه الحق، فكان ذلك العدو الأول للسفسطة، ولشتى ضروب الزَّيْف الفكري، وكان الناطق الأسمى باسم العقل والمنطق والبحث النزيه الموضوعي[1].

وأختم هذه الفقرة بخبر رواه ابن حزم عن نفسه،فقد ناظر رجلاً مرة، وظهر شُفوفُه عليه: (غلبه في الجدال)، ثم كان له موقف آخر، قال[2]:

«ناظرتُ رجلاً من أصحابنا في مسألةٍ فَعَلوْتُه (غلبتُه) فيها لِبكوءٍ كان في لسانه (لا يحسن عرض فكرته بلغة واضحة مبينة) وانفصل المجلس (انفضّ) على أنّي ظاهرٌ (غالب)، فلما أتيتُ منزلي حاك في نفسي (جَالَ ودارَ) منها

(١) التقريب لحد المنطق: ٣٣٧ – ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق: ٣٤٠.

شيء، فطلبتُها في بعض الكتب، فوجدت برهاناً صحيحاً يبيّن بُطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممّن شهد ذلك المجلس فعرّفتُه بذلك. ثم رآني قد علّمتُ على المكان (وضعت علامةً) من الكتاب، فقال لي: ما تريد؟ فقلتُ: أريدُ حَمْلَ الكتاب وعرضه على فلان (مُناظِره) وإعلامه بأنّه المحقّ، وأني كُنتُ المُبطل، وأني راجعٌ إلى قوله! فهجم عليه من ذلك أمرٌ مُبْهِت[1] وقال لي: وتسمح نفسك بهذا؟ فقلت له: نعم! ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لَما أخّرتُه إلى غد..».

فهذا يُعَدّ في قمّة الموضوعية، وشرف الجدال، وموقف العالم الحقيقي.

ابن حزم وعلم الكلام[2]:

كانت معرفة ابن حزم بالمنطق وإتقانه فن الجدل من أدواته في التّصدي لمسائل علم الكلام، ومناظرة عدد من علماء الكلام

(١) يقال: بَهَتهُ الشيء: أدهشه وحيّره.

(٢) علم الكلام، كما في تعريفات المناوي (ص ٦٠٧): علمٌ يُبْحَثُ فيه عن ذات الله تعالى، وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام.

المشهورين. وفي جملة مؤلفات ابن حزم كتابه المشهور (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل) أفرغ فيه كتاباً كان ألّفه للردّ على من دعاهم «أهل البدع» واهتم ابن حزم أول ما اهتم من القضايا الكلاميّة بالتوحيد (الإيمان بالوحدانية) ونفي التّشبيه، وتكلم في موضوع الصِّفات ومنع أن تُطلق على الله تعالى رادّاً على المُعتزلة ومَنْ جاراهم.

واهتمّ من المسائل الكلاميّة أيضا بقضية: (الجَبْر والاختيار) التي تلخص عادة على وجه مُبَسّط: الإنسان مخيّر أم مُسيَّر؟

ابنُ حَزْم والفقْه :

نقول هنا كلمةً موجزةً لأنّ الكلام على فقه ابن حزم يمكن أن يشغل كتاباً كبيراً. ولابد من الإشارة الأولية إلى أن ابن حزم بلغ درجة المجتهد المطلق، فقد أتاح له علمه وفكره وذهنه الثاقب وإحاطته الكافية باللغة والبلاغة والسير وأحوال الصحابة إلى غير ذلك ليكون له رأي وفكر واستنباطٌ للأحكام.

وقد قال الأستاذ محمد أبو زهرة[1] وهو من كبار فقهاء العصر، «لابن حزم فقه له لون خاص امتاز به، وله آراء فقهية

(١) ابن حزم: حياته وعصره وآراؤه الفقهية – محمد أبو زهرة: ٢٦٣ وما بعدها.

ليست في فقه الأئمة الأربعة ولا غيرهم. وهو يتفق في كثير من الأحوال مع المنقول (المرويات) فالأئمة الأربعة يعتمدون في استنباطهم (يعني الآراء والأحكام) على الكتاب والسنة والإجماع والرأي، ويختلفون في منهاج الرأي ما بين مضيّق فيها وموسّع..

أما ابن حزم فإنه يعتمد على الكتاب والسنة والإجماع فقط، بل يصرّح بأنه لا يصحّ لأحد أن يقلّد أحداً ولو كان صحابيّاً...

... وقد حمل فِقْهه اسم: الفقه الظاهري، لأنه لم يعتمد إلاّ على ظاهر الكتاب والسنّة..

وابن حزم يأخذ الحكم من النصّ (القرآن والحديث) ولا يُعلّل النصوص، ولذلك يسمّى هذا المنهاج: المنهاج الظاهري أو الفقه الظاهري.

والمذهب الظاهري نشأ في المشرق (العراق) أسسه داوود بن علي بن خلف البغدادي، تخرج بتلاميذ الإمام الشافعي..على أن ابن حزم لم يكن تابعاً لداوود، بل كان مستقلاً في تفكيره: يتفقان ويختلفان، وإن اتّحد المنهاج الينبوع الذي يستقيان منه..

ومما أُخذ على داوود، وعلى الظاهريّة، أنه منع التقليد مطلقاً، وأجاز (سَمح) لكل فاهم للعربية أن يتكلم في الدِّين بظاهر القرآن

والسنّة، حتى لقد جرّأ العامّـــة على ما لا قِبل لهم به (لا يعرفونه ولا يستطيعونه) من أخْذِ الأحكام مباشرةً من الكتاب والسنّة[1].

ابن حَزْم واللغة العربيّة وآدابُها:

كان الجانب اللغوي والأدبيّ من ابن حزم جانباً واسعاً من جهة وذا مزايا من جهة ثانية. فاتّساعُه من وفرة مؤلفات ابن حزم وآثاره، ومن ثقافته العربية: اللغوية والأدبية والبلاغية والنقدية.

ورجل فقيه بلغ درجة الاجتهاد المطلق لا بد من أن يكون على ذلك التمكن من ناصية اللّغة، والاتساع في معارفها، وكل ما يتعلّق بها.

وقد كانت معرفته بعددٍ من اللّغات الأخرى، وخصوصاً اللغات الأعرابية (كالسريانية والعبرية) مدداً إضافياً يزيد من تمكّنه، وسعة اطّلاعه.

- وبرع ابن حزم في الشعر كما برع في النثر (انظر ما اخترناه في آخر الكتاب).

(١) نقل الأستاذ أبو زهرة العبارة من فقيه آخر مشهور من أصدقائه هو الشيخ زاهد الكوثري (انظر ص: ٢٦٧).

- أما نثره فيجيء سهلاً، قاصداً (يدخل في الموضوع دون تطويل في التقديم ولا إسراف في الزخرف) ويستجيد ألفاظه وعباراته، بحيث تجيء مناسبة للموضوع: دون أناقة زائدة، أو خشونة طارئة.

- وقد قارب الأستاذ سعيد الأفغاني[1] بين أسلوب ابن حزم وأسلوب الجاحظ من عدد من الجهات (وإن اختلفا في غيرها). وضرب مثلاً للمقاربة من قطعة في (طوق الحمامة) وقال إنّ هذه القطعة لو أُدخلت في كتاب من كتب الجاحظ لما استطاع الناقد الخبير أن يميّزها مما حولها: فهي تحتوي على «معانٍ خِصْبَةٍ، في جمل قصيرة مقطعة تقطيعاً موسيقياً، لذيذ الجرس، حلو النبرات، فيها دلالة صريحة على أن اللغة طوع يد ابن حزم: يَدَعُ (يترك) منها، ويأخذ ما شاء كيف شاء: تتوارد عليه مفرداتُها وتراكيبها ومترادفاتها من كل جانب، فيعقد منها الفِقَرَ المزدوجة التي تسحر اللب، وتُطرب السمع..».

(١) ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة: ٨١.

والقطعة التي أشار إليها من (طوق الحمامة) هي في باب قبح المعصية[1]، قال في معنى اختلاف الأحوال باختلاف الحب والكراهية آخِذاً المثال من امرأة غيّرت مودّتها. وابن حزم هنا في موقع الواصف الملاحظ. فقال في الوجه الأوّل.

«فَعَهِدْتُها (عَرفت من حالها أنَّها) أصْفى من الماء وألطفُ من الهواء، وأثبَتُ من الجبال، وأقوى من الحديد، وأشدّ امتزاجا من اللون في الملوّن.. وأضوأ من الشمس.. وأثقب (أسطع) من النجم.. وأعجب من الدّهر، وأحسن من البِرّ.. وألــذّ من العافية، وأحلى من المُنى، وأَدْنى (أقرب) من النفس، وأقرب من النسب، وأرْسَخ من النقش في الحجر، ثم لم أَلْبَث أن رأيتُ تلك المودّة قد استحالت (تغيّرتْ إلى) عداوة، أفظع من الموت، وأَنْفَذ من السّهم، وأمرّ من السُّقم، وأوحش من زوال النعم، وأقبح من حلول النقم، وأمْضى (أسرع) من عُقم الرّياح[2]، وأضرّمن الحُمق، وأدهى من غلبة العدوّ، وأشدّ من الأسر، وأقسى من الصخر.. وأقطع من فَجْءِ[3] البَلاء، وأبشع من السمّ الزّعاف[4].

(١) طوق الحمامة (تحقيق د. إحسان عباس): ٢٨٢ – ٢٨٣.
(٢) الريح العقيم: التي لا تأتي بمطر.
(٣) فَجْء: مفاجأة.
(٤) سمّ زُعاف: سريع القتل.

فالنص نموذج جيّد على تَدَفُّق أسلوب ابن حزم، وقدرته على الوصول إلى معانية ومقاصده،وعلى هذا التساوي بين جمال الفكرة ودقّتها وبين جمال الأسلوب وتدفّقه. ويلاحظ القارئ سعة مخزن ابن حزم اللّغوي، وسرعة التقاطه لأطراف الكلام، فكأنَّه يُملي رسالة عادية في شأنٍ من الأمور اليوميّة.. وهذا من جودة الذهن، وبراعة البلاغة.

ومزاياه في شعره لا تقل عن نثره، ويبدو أن كثيراً من شعره الذي وصل إلينا كان وليد البديهة والارتجال، أو هو من الشعر الذي يقال فيه إنه ابن يومه أو ابن ليلته، وقد شهد له تلاميذه بالقدرة على ارتجال الشعر والسرعة في نظمه بما يوافق الغرض المطلوب.

وقد كان لابن حزم ديوان شعر جمعه أكثر من واحد من أدباء الأندلس لكنه - إلى الآن - في المخطوطات التي لم تظهر.

والشعر الذي وصل إلينا من ابن حزم أكثره في غَرض الغَزل[1]، والنّسيب تغلب عليهما العفّة.. ثم فيه شيء من الحكمة، وشيء من الوصف، وشيء من الرثاء.

(١) ابن حزم الكبير: د. عمر فروخ: ٧٣ – ٧٥.

وكان ابن حزم ينظم الشعر رويّةً (في تأنٍّ) وارتجالاً (على البديهة) وهو يجري في شعره على السليقة لا يتكلف فيه. من أجل ذلك كان شعره واضحاً، بعيداً عن الصنعة، بعيداً عن شكل القصيدة القديم: فلا وقوف فيه على الأطلال، ولا كثرة في أغراض القصيدة.. على أنّ له شيئاً من الشّعر في التجريد الذّهني كقوله:

تبارك مَنْ سوّى مذاهب خَلْقِه

على أنك النورُ الأنيقُ الطبيعيُّ

وقد اخترتُ هذه القطعة، وهي ثابتة في ما يأتي من المختارات الشعرية.

ووصف أ. سعيد الأفغاني شعر ابن حزم فقال فيه[١] إنه «على رغم ما حمّل من ثقافته الدينية والنحوية والتاريخية بقي خالصاً من الشوائب».

وقال في مجال آخر: إن أشعاره الباقية تفصح، ولو بعض الإفصاح، عن طبعه في الشعر. ورقّة عاطفته، وعُذوبة لفظه، وحلاوة مدخله[٢].

(١) ابن حزم - سعيد الأفغاني: ٨٧.

(٢) المرجع السّابق: ٩١.

رأي في الشعر وأقسامه:

قسم ابن حزم الشعر ثلاثة أقسام من حيث عمله وصنعته وإتقانه وأسلوب نظمه وهي صناعةٌ، وطبعٌ، وبراعة[1].

فالصّناعةُ: هي التأليفُ الجامع للاستعارة والإشارة والتّحليق على المعاني والكناية عنها، ورَبُّ هذا الباب (رأسُه) من المتقدّمين (من الشعراء القُدامى): زهير بن أبي سُلمي، ومن المُحدّثين (ابتداءً من العصر العبّاسي) حبيب بن أوس (الطائي، أبو تمّام) .

والطبع: هو ما لم يقع فيه تكلُّف، وكان لفظُه عاميّاً (أي سهلاً شعبياً) لا فضل فيه (لا زيادة) عن معناه، حتى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمنثور لم تأت بأسهلَ ولا أخْصَرَ من ذلك اللفظ، ورَبُّ هذا الباب من المتقدّمين جَرير، ومن المحدثين الحسن (بن هانئ: أبو نواس) .

والبراعةُ: هي التصرُّفُ في دقيق المعاني وبعيدها، والإكثار في ما لا عَهْدَ للنّاس فيه (التجديد والابتكار) وإصابة التشبيه،

(١) التقريب لحدّ المنطق ٣٥٤–٣٥٥ (الجزء الرابع من رسائل ابن حزم).

وتحسين المعنى اللطيف. وربّ هذا الباب من المتقدّمين امرؤ القيس، ومن المتأخرين علي بن العباس الرّومي.

وأشعار سائر الناس راجعةُ إلى الأقسام التي ذكرنا، ومركّبة منها.

ابن حزم وعلم النّفس:

اختار د. زكريا إبراهيم عنواناً أكثر خصوصية فقال في الفصل السادس من كتابه عن ابن حزم " ابن حزم عالم النفس «وقد اخترت فقرات كثيرة من كلامه تنحو هذا المنحى (في آخر الكتاب). وقد قال الدكتور زكريا»[1]. قد يعجب القارئ حين يرانا نُدخل ابن حزم في عِداد علماء النفس، ولكنه لو قرأ بعين الاعتبار (التدبّر) رسالته في الأُلفة والأُلاّف لما تردّد في إدراج تلك الرسالة في المحاولات المبكرة في علم النفس... إننا نلتقي في تضاعيف (أثناء) دراسته للحب بالكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة والآراء الفلسفية العميقة.

وذكر د. زكريا اعتماد ابن حزم في كتابه على تجاربه، ومشاهداته الدقيقة التي صدرت عن بصيرة وخبرة وعمق تفكير. وأشار إلى ما قاله ابن حزم في تعريف المحبّة بأنّها: «استحسان روحاني وامتزاج

(١) ابن حزم: ٢٣٢، وما بعدها.

نفساني» وإلى قوله إن الجمال ليس هو وحده الذي يجمع بين المحبّين، واعتماده على الآية الكريمة M A B C D E F G H I J K L[1].

وأشار إلى تفصيل ابن حزم لأنواع المحبة بين محبة القرابة ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب... الخ. وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه من هذا الكتاب.

ونبّه على قول ابن حزم إن المحبة لا تقومُ مطلقاً بين متنافرين أو متضادّين[2]، لأن الشكل يستدعي دائماً شكله، والمثلُ إلى مثله ساكن.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

ووقف د. زكريا عند إفاضة (تطويل) ابن حزم في حديثه عن علامات الحب، فالعين هي باب النفس.. فليس بدعاً (غريباً) أن تكون النّظرة هي نقطة انطلاق الحبّ.. (وقضية الحب من أول نظرة..).

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٣٨.

ومرّ د. زكريا على أبواب الكتاب التي رأى فيها ملامح نفسية ظاهرة ثم قال: «وقد اتبع ابن حزم في دراسته للحب منْهَجَيْ الاستبطان والاستقراء فجاءت رسالته حافلةً بالملاحظات النفسية الدقيقة، والخبرات الحية المُعاشة، والأمثلة التاريخية الصادقة، والنماذج البشرية المتنوّعة، وهذا ما جعل منها دراسة فذّة في تاريخ الأدب العربيّ».

الهيئة العامة السورية للكتاب

كتاب طوق الحمامة

كتاب (طوق الحمامة) من الكتب التي أثارت عليه الجانبين: الحاسدين من جهة والمبغضين المغرضين من جهة أخرى. فالكتاب قد ذاع وانتشر في عصر ابن حزم، وحرك ألسنة بعض الفقهاء وأمثالهم ضد كتابته في الحب والمحبّين وفي أحوال العشَّاق والمتيّمين، ونظم ابن حزم للرد على هؤلاء قطعة أولها:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهواء

وسيّان عندي فيك لاحٍ وساكتُ

أوْرَدْتُها في (المختارات الشعرية) لابن حزم في هذا الكتاب. وقد علّق د. زكريا إبراهيم بعد هذا الشعر ومناسبته فقال[1]: إن الحقَّ أنَّ ابن حزم حين كتب في موضوعات الحب لم يَنْسَ أن يتخذ من هذه الدراسة مناسبةً للحضّ على الفضيلة والدعوة إلى العفّة، والمناداة بقبح المعصية ومن هنا فقد أضاف ابن حزم إلى

(١) ابن حزم: ٢٦٦.

تحليلاته النّفسية العميقة نصائح أخلاقيةً قيمةً توج بها رسالته الجميلة في الحب، وما كان لابن حزم أن يتناسى (الخير) عند حديثه عن (الجمال) فإنّ هذا المفكّر الأندلسي العظيم كان أعلم الناس بما في الجَمال من خير، وما في الخير من جمال...

وقال في مجال آخر: إن ابن حزم المجادل المُصارع الذي تُسْمَعُ لجدله قعقعة[١] تشبه قعقعة السلاح،هو بعينه المحب العاشق الذي يحدثنا عما في الحب من دموع، وندوب[٢] وهو في حُبّه وحربه ذلك المفكر الظاهريّ الذي يأخذ الواقع على ما هو عليه، ويقبل الحقيقة دائماً على ظاهرها.. الخ[٣].

عُنوان الكتاب :

سمّى ابن حزم كتابه «طوق الحمامة في الأُلفة والألاّف» وآخر اسم الكتاب: قريب من معنى الحب والمحبين، ولكن الأُلْفةَ أعمّ من الحبّ وأوسع، واستفاد العبارة من الحديث المشهور: «إن الأرواح أجناد مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

(١) قعقع الشيء: أحدث صوتاً عند تحركه أو تحريكه.

(٢) الندوب جمع النَّدَب: أَثر الجرح.

(٣) ابن حزم: زكريا إبراهيم: ١١.

و«طوق الحمامة» هو هذا اللون المخالف لسائر لون الحمامة يكون عند العنق، فكأنه «طوق». وهو للحمام زينة وجمال ومزيّة.

فجملة المقصود من العنوان: أنه كتابٌ عن الحبّ والمحبّين، في ظلالٍ أدبيةٍ جماليّةٍ، وعبارة طوق الحمامة توحي بتلك الجماليّة المقصودة.

وطوق الحمامة يُضرب مثلاً للأمر الذي يثبت ويلزم دائماً ويُقيم، ويستديم. وفي أقاويل الأعراب، ومما ردده الشعراء أن الطوق كان عطية للحمامة تزييناً لها بدعاء نوح عليه السلام لها حين رجعت إلى السفينة ومعها من الكرْم ما معها وفي رجليها من الطين والحمأة ما فيها، فعــوضت من ذلك خضاب الرجلين، ومن حُسن الدلالة والطاعة طوق العنق[١].

وفي أمثال العرب. طُوّقَ (فلان) طوقَ الحمامة، أي تقلّدها تقلّداً باقياً بقاء طوق الحمامة إلى يوم القيامة[٢].

(١) من ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار نهضة مصر ١٣٨٤ هـ ص ٤٦٥.

(٢) المصدر السابق: ٤٦٦.

وعنوان كتاب ابن حزم يجمع الدّلالة المعنوية، والإشارة الجمالية، وهو أيضاً حلو العبارة، أنيق الألفاظ، ملائم تماماً لموضوع الكتاب.

متى ألف رسالته: طوق الحمامة؟

وأين؟ ولمن؟

كان ابن حزم حين ألّف رسالته خارج قُرطبة، فقد خرج عنها، كما ذكرها في أول هذه الدّراسة بعد اشتداد الفتنة في المدينة – العاصمة، وكان حين ألف رسالته في مدينة شاطبة، وكان ذلك في مدّة لا تتجاوز شهوراً من سنتي ٤١٧ أو ٤١٨ هـ[١] وكان عمر ابن حزم في ذلك الوقت نحو ٣٤ سنة.

أما الداعي إلى تأليف الكتاب فرسالةٌ تلقّاها أبو محمد بن حزم من أحد أصدقائه كان يستوطن مدينة المريّة)على الشاطئ الجنوبي الشرقي من الأندلس وكانت ميناءً ذا أهمية، وبلداً ذا مكانة «استراتيجية»، وثقافية وحضارية).

(١) هناك مناقشة مفصلة لمن أراد التوسّع في هذا الموضوع في كتاب الدكتور طه الحاجري (ابن حزم – صورة أندلسية) – دار الفكر العربي – القاهرة (دون تاريخ) ص ١٥٢ – ١٥٣.

وكان هذا الصديق قد نشب في شباك حبّ آسر، ووقع في أمرٍ لم يستطع إخفاءه عن ابن حزم، وسأله عن رأيه في هذا الذي نشب فيه (ويبدو أنّ ذلك الصديق كان مقارباً في السنّ لابن حزم، وتجاوز سنّ الصبا وفورة الشباب) وسأله أن يعالج قضيته، وينصح له، ويتحدّث إليه بحديث الحبّ.. في كتاب أو «رسالة في صفة الحبّ، ومعانيه، وأعراضه وأسبابه، وما يقع فيه و: له على سبيل الحقيقة..» [1].

وكانت هذه المناسبة فرصة لابن حزم، ليتوغل في موضوع لديه فيه أفكار وآراء وانطباعات، وأخبار، وكلام في فلسفة الحبّ

محتوى الكتاب :

جعل ابن حزم، كما أشرت، في ثلاثين باباً بدأها بباب فيه العنوان، والموضوعات، والباعث (طلب صديقه)، وكلام في ماهيّة الحب.

ثم تسلسلت الأبواب على النحو الآتي: علامات الحب، مَنْ أحبّ في النوم، مَنْ أحب بالوصف، من أحب من نظرة واحدة، مَنْ لا يحب إلاّ مع المطاولة، من أحب صفة ً لم يستحسن بعدها

(١) طوق الحمامة: ٨٦.

غيرها ممّا يخالفها، التّعريضُ بالقول، الإشارة بالعين، المراسلة، السفير، طيّ السرّ، الإذاعة، الطاعة، المخالفة، العاذل، المساعدة من الإخوان، الرقيب، الواشي، الوصل، الهجر، الوفاء، الغدر، البين، القُنوع، الضنى، السّلوّ، الموت، قبح المعصية، التعفف.

وأكثر ابن حزم من ذكر الأخبار الواقعة للمحبين، الحاصلة منهم، الواردة عنهم، والتفت فيها إلى أهل بلده الأندلس، فالكتاب بهذا المعنى كتاب أندلسي متميز. وشَحَنَهُ بقطعٍ من الأشعار التي لها مناسبة في كل باب، وأكثر هذا الشعر لابن حزم نفسه. وقد اخترتُ من أشعاره الغزليّة الواردة في طوق الحمامة، في القسم الأخير من هذا الكتاب.

وقد صار (طوق الحمامة) من كتب الحبّ الأصيلة، المشهورة، الذائعة، المنقولة إلى عدد من لغات الدُّنيا. وما تزال العناية به، والنقل عنه، والاستفادة منه مستمرة.

وقد اشتهرت عن ابن حزم عنايته بأهل بلده، والتفاته إليهم، واعتداده بأهمية الحضارة الأندلسية، واعتداده بشخصه وعلمه أيضاً، وهو القائل:

ويا جوهر الصين سُحْقاً فقد غَنِيْـتُ بياقوتـةِ الأَندلسْ

وقوله «سُحقاً» دعاء على جوهر الصِّين، واستبعادٌ له، يقول إنه يترك المجلوب من البلاد الأُخرى، وقارن بين «جوهر الصين» و« ياقوت» الأندلس، وفضّل ياقوت الأندلس!..

كلام في الحب قبل ابن حزم:

وردت كتابات جزئية، وقليلة عن الحبّ في بعض الكتب ممّا نقلوه عن اليونان، أو ورد في آثار بعض العلماء والفلاسفة مثل الفارابي أو المؤرخين مثل المسعودي. وأشهر من سبق ابن حزم في ذلك، دون توسيع أو تفصيل أو شمول هو محمد بن داوود الظاهري صاحب كتاب (الزُّهرة). ومؤلفه هو ابن مؤسس المذهب الظاهري في المشرق. وفيهم الوَشّاء صاحب كتاب المُوشّى وفيه لمحات يسيرة لها علاقة بموضوع الحب أيضاً، ومن الموضوعات التي عالجها ابن حزم وابن داوود الظاهري: الرّقيب، والرّسُول، والواشي، والسّلوّ.. [1] على أنّ في كتاب ابن حزم خصوصيّة، وترابطاً ورؤية ذاتية، وأسلوباً في المعالجة

(١) للتوسع في هذه الفقرة انظر مثلاً مقدمة تحقيق طوق الحمامة للدكتور إحسان عباس في (رسائل ابن حزم) ١: ٤٥ – ٥٢.

وإبداعاً في التحليل، وتمثيلاً من الواقع، وتعليقاً شخصياً يُبقي لابن حزم مزية الابتكار والتفوّق.

وقال أ. أبو زهرة على سبيل الإجمال إن ابن حزم حين تحدث عن «ماهيّة الحب» كان يمزج بين الفلسفة والنصوص الإسلامية مَزْجاً، فهو يعتمد في أصل التعريف على الفلسفة، ثم يزكيه بنصوص من القرآن الكريم[1].

وحلّل الأستاذ أبو زهرة ما في الكتاب: من جهة الفكر والمادة العلميّة والمعالجة (الكتابة والتأليف) ورأى أنه اعتمد على أصلين اثنين: أحدهما الفلسفة والمأثور عــن السّابقين (والنّصوص)، والثاني هو الاستقراء والتّتبع: فابن حزم اعتمد كثيراً على الأخبار والحكايات الواقعية ودعمها بالشواهد مما رأى وعاين بنفسه، أو مما بلغه خبره وتأكدت لديه حقيقته... فالتجربة والمشاهدة والاختبار كانت الأسس التي اعتمد عليها ابن حزم في كتابة (طوق الحمامة).

(١) ابن حزم - محمد أبو زهرة: ١٧٠- ١٧١.

ترجمة طوق الحمامة:

تُرجم طوق الحمامة إلى عدد من اللغات الأوربيّة الحديثة: الإنجليزية، والروسية، والفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، والبولندية...

وهذه السّلسلة من الترجمات تؤكّد الاهتمام الذي أثاره الكتاب في العصر الحديث خارج دائرة المستشرقين، والمهتمين بالدراسات المشابهة..

٥) الزاد... للآخرة

وقال أبو محمد بن حزم: يتصوّر يوم وفاته، وحال الناس من حوله بين محبّ حزين وشامت ضاحك، ويدعو الله تعالى أن يرحمه ويُحسن آخرته[١]:

[من بحر الطويل]

كأنـــك بـــالزُّوار لـــي قـــد تبـــادَروا

وقيلَ لهم: «أوْدى عليٌّ بنُ أحمد!»[٢]

(١) القطعة في معجم الأدباء ١٢: ٢٥٣ – ٢٥٤.

(٢) كأنك: الشاعر يخاطب نفسه (يُجرّد من نفسه إنساناً يحادثه) ويمكن أن نفترض أنه يخاطب تلميذاً أو ابناً أو صاحباً. والرأي الأول عندي أرجح، وأقرب إلى فن الشعر. وأودى: مات.

فيا رُبّ محــزون هنــاك، وضــاحكٍ

وكم أدمــعٍ تُــذْرى وخَــدّ مُخَــدّدِ[1]

عفا الله عنــي يــوم أرْحَــلُ ظاعنــاً

عن الأهل محمولاً إلى ضِيْق مَلْحــدِ[2]

وأتركُ مــا قــد كنــتُ مُغتبطــاً بــه

وألقى الذي آنَسْتُ منــه بِمَرْصَــدِ[3]

فوا راحتــي إن كــان زادي مُقــدَّماً

ويا نَصَبِي إن كنــتُ لــم أتــزوّدِ! [4]

(١) تذرى: تُذرف: تسيل. ومخدّد: من خَدّد: هزل وضمر.

(٢) ظعن عن المكان: ارتحل. والمَلْحد: القبر. من لحد الميت: دفنه في اللحد؛ وهو الشق يكون في جانب القبر للميت (طرفه من الداخل).

(٣) مغتبطاً به: مسروراً.

(٤) النَّصب: التّعب.

- والبيت مؤسس على الآية الكريمة (وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى).

٦) إفسادُ النميمة

قال المؤرّخ عبد الواحد المراكشي في ترجمة ابن حزم من كتابه (المعجب) ومن أجود ما أحفظ لابن حزم بيتان قالهما في رجلٍ نَمّام[١]:

[من بحر الطويل]

أَنَمُّ من المرآةِ في كــلّ مــا دَرى

وأقطعُ بين الناس من قُضْبِ الهنْــدِ

كــأن المنَايــا والزّمــانَ تعلّمــا

تَحَيُّلَهُ في القَطع بــين ذوي الــودِّ

(١) المعجب: ٩٦.

- النمّام: الذي يُشيع النميمة، ويُذيعها (نمّام على وزن: فَعّال؛ صيغة مبالغة اسم الفاعل، أي: كثير النّمّ، واسم الفاعل: نامّ، بتشديد الميم).

- جعل الشّاعر ذلك الرّجل أشدّ نمّاً من المرآة لأنها تكشف عن الشخص الذي يقف أمامها، هو أشد قطعاً من سيوف الهند، المشهورة (بنميمته يحدث القطيعة) .

- ثم قال: صار هذا النمام مثالاً للنميمة التي تؤدي إلى القطيعة بين الأحباب والأصحاب، وشبّه المنايا (جمع منية: الموت) وأحداث الزمان (كالسّفر والاغتراب) بذلك النمّام لأن نتيجة عملهما واحدة!!..

٧) عبقريّتُه وجَحْدُ قومِه له

قال أبو محمد يردّد ما قاله من قبلُ شعراً ونثراً بسبب مواقف حاسديه من الفقهاء والعامة وبعض السّياسيّين: فهو يذكر علومه وما يتقنه، ويشكو من إهماله لأنه ابن البلد وليس وافداً (من الخارج) ويوطّن نفسه على المعاناة، فهو ذكي مبدع ولهذا ضريبة يؤدّيها[١].

[من بحر الوافر]

أنـــا العِلْـــقُ الـــذي لا عَيْـــبَ فيـــهِ

سوى بلدي، وأنّي غيرُ طارِ(ي)! [٢]

(١) النص في معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٢: ٢٤٦.

(٢) العلق: النَّفيس. يقول ليس فيّ عيْبٌ يُسَجل عليَّ. وهناك أمران يقالان (فهل يدخلان في العيوب على الحقيقة؟).

أحدهما: تنكّر بلدي لمواهبي (عدم إعطائي حقي الأدبي).

والثاني: أنَّني أندلسي، ولستُ وافداً (من الشرق).

و(طارٍ) (أصله طارئ) من طرأ فلان على المدينة: دخلها، وهو ليس من أهلها.

تُقِــرُّ لـــيَ العــراقُ ومـــن يَليهـــا

وأهـــلُ الأرض إلاّ أهـــل داري! (١)

طَـــوَوْا حـــسداً علـــى أدبٍ وفهـــمٍ

ونظمٍ مـــا يُـــشقُّ لـــه غُبَـــاري (٢)

(١) كل من عرفني واطلع على نتاجي العلمي والأدبي يقرّ بدرجتي العالية.. إلاّ أهل بلدي.. (يعني كما يقول المثل العربي؛ زامر الحي لا يُطرب!)..

(٢) طوى الحسد: أخفاه عن المحسود. " يحسدونني لبراعتي في العلوم والآداب والفقه والشعر " الخ.. يقال: فلان لا يُشق غباره، أي لا يلحق به (في علمه أو فنه) أحد.

- أصل هذا من الفارس يَسبق في الحلبة، وغيرها فيثورُ غبارٌ حوله، والذي يستطيع اللحاق به سيدخل في الغبار الذي أثاره. فهذه كناية واضحة. ومن شعر المتنبي عن سيف الدَّولة الذي كان معجباً بشعره وشخصيته:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقٍ أراهُ غُباري ثم قال له: الحقِ!

يقول سيف الدولة لمن يزعم أنه أشعر من المتنبي: ذاك هوَ! فالحقْ به إن استطعت!..

فمهما طـــال فـــي الآفـــاق ذِكـــري

فما سَطَعَ الـــدّخانُ بغيـــر نـــارِ! [1]

٨) عن إحراق كُتبه

ومن شعره يصف ما أحرق له المعتضد بن عباد[2] من كتبه:

(١) شهرتي في أنحاء الدنيا جاءت عن حقيقتي وإبداعي.. تماما كالدخان الذي لا بد له من النار. وفي البيت تشبيه ضمني، تمثيلي.

(٢) المعتضد بن عبّاد الحاكم الثاني لدويلة بني عَبّاد في إشبيلية حكم بعد أبيه وهو أبو عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، تلقب بالمعتضد بالله، وكان قوياً، جباراً قاسياً، وكان مع ذلك ينظم شيئاً من الشعر وله علم بالأدب. وقد تقرب المعتضد إلى خصوم ابن حزم من الفقهاء والعامة وأحرق كتبه في ساحة عامة، وهو أدرى بما فيها من العلم، وكانت وفاة المعتضد سنة ٤٦٤ هـــ بعد وفاة ابن حزم بثماني سنوات.

- والشعر في معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٢: ٢٥٢ - ٢٥٣.

[من بحر الطويل]

وإن تُحرقوا القرطاس لا تُحرقوا الذي

تضمّنه القِرطاسُ، بل هو في صــدري[١]

يسير معي حيــث اســتقلّت ركــائبي

وينزلُ إن أنزلْ ويُدفَنُ فــي قبــري[٢]

دعــونيَ مــن إحــراق رَقّ وكاغــدٍ

وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ من يدري![٣]

(١) القرطاس: الورق. يريد: (الكتب التي تؤلف من الورق المكتوب فيه).
- ومن هذا المعنى قالوا في الأمثال: العلم في الصُّدور (الحفظ)، لا في السطور (على الورق).

(٢) الركائب جمع الركاب: السّرج، والإبل المركوبة، وهي المقصودة. واستقلّت: سافرت. يقول علمُه معه مقيماً في بلد، أو راحلاً من مكان إلى آخر.

(٣) الرّقّ والكاغد مما يُكْتَبُ فيه، الرق: جلد رقيق يكتب فيه (كجلد الغزال والحمل الصغير يعالج، وكان يُكتب فيه. والرقّ أيضاً الصحيفة البيضاء، الكاغد القرطاس أو الورق. (والكلمة معربة).
- يقول إحراق الكتب هو إحراق للرق والكاغد والحبر ولكن العلم الذي في صدري باقٍ، أبثه في الناس (دروساً) وأعيد تأليفه (كتباً).

وإلاّ فَعُــودوا فـــي المَكاتـــبِ بَـــدأةً

فكم دون ما تبغون للهِ مـــن ســـترِ[1]

٩) الحبّ.. «والظّاهر»

«... وابن حَزْم المُجادل المُصارع الذي تَسْمَعُ لجدله قعقعةً تُشبهُ قعقعة السّلاح هو بعينه ابن حزم المحبّ العاشق الذي يحدثنا عن الحب من دموع وندوب وجراح؛ وهو في حَرْبِه وحُبّه (معاً) ذلك المفكّر الظاهريّ الذي يأخذُ الواقع على ما هو عليه، ويقبل الحقيقة دائماً على ظاهرها؛ وقد روى لنا المقّري في (نفح الطيب) أن ابن حزم التقى يوماً، وهو بصحبة صديق له، بذاتِ وجه حَسن؛ فقال لصديقه: هذه صورةٌ حسنة! فقال لصاحبه: «لم نَرَ إلا الوَجْه فلعل ما سَتَرتْهُ الثيابُ ليس كذلك! «فقال ابن حزم ارتجالاً (على البديهة)»[2].

(١) إن كان عندكم (يا من حرّضتم، وأحرقتم كُتبي)من علم فتفضلوا وأرونا إيّاه. لكنكم جُهّال تحتاجون إلى أن تبدؤوا التعلم من المراحل الأولى (الكتاتيب)! ثم قال: تظنون أنكم أحرقتم علمي؟! أنتم واهمون. وستر الله وعونه دون أحلامكم المزعومة!.

(٢) النص في نفح الطيب للمقري ٢: ٨٢.

- والمقدمة مستفادة من مطالعة د. زكريا إبراهيم (ابن حزم ١١-١٢).=

[من بحر الطويل]

وذي عَذَلٍ في مَــنْ ســبانِيَ حُــسْنُه

يُطيل مَلامي فــي الهــوى ويقــولُ[1]

أمِنْ أجْلِ وجــهٍ لاحَ لــم تَــرَ غيــرهُ

ولم تَدْرِ كيــفَ الجــسمُ أنْــتَ عليــلُ

فقلت له: أسْرِفْتَ فــي اللّــومِ فاتّئــدْ

فعنــديَ ردٌّ لــو أشــاءُ طويــلُ[2]

ألــم تَــرَ أنّــي ظــاهريّ وأنّنــي

على ما أرى حتّى يقــومَ دليــلُ؟![3]

= وقد شهد الحميدي تلميذ ابن حزم أنه لم ير مثل أستاذه في سرعة نظم الشعر على البديهة.

(١) العَذْل: اللوم. سبى: من السَّبي.استعار الكلمة للحُسن، فكأن الحسن إنسان (امرأة جميلة جداً) قادر على لفت نظره، وأسْرِه (بالمعنى المجازي).

(٢) اتئد: تمهّل. يقال: سار سيراً وئيداً: متمهّلاً.

(٣) أنا أعجبت بهذا الحسن: يكفيني هذا الظاهر الواضح، الحسن الجميل. سأظل معجباً به، حتى يقوم دليل آخر قوي جدّاً على عكس ذلك.

- وفي الكلام تورية لطيفة، فهو يأخذ الجمال على ما ترى العين وتدرك الحواس. ومعنى آخر مُورّى به (من وراء المعنى الأوّل) أنا من المذهب الظاهري. وهذا أصلٌ من أصوله!..

الهيئة العامة السورية للكتاب

المحتوى

الصفحة

هذا الكتاب ٧

مدخـــل :

١) شخصية تاريخية ١١

٢) عناصر المُجتمع وأدوارها السِّياسية

على أيّام ابن حزم القرطبي ١٤

الفصل الأول

مَجْريات حياة ابن حَزم ٢٣

مؤلفات ابن حزم ٥٤

الفصل الثاني

آفَاقُ ابنِ حَزْم العِلميَّةُ والأدَبيَّةُ ٥٩

كتاب طوق الحمامة ٨٥

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

الهيئة العامة السورية للكتاب

يلقي هذا الكتاب الضوء على أحد أعلام الفكر والعلم والفن في الحضارة العربية الإسلامية، ورغم إحراق بعض كتب ابن حزم في حياته وضياع بعضها الآخر،إلا أن ما بقي لنا منها ليس بالقليل، وهو كافٍ للدلالة على شخصيته، وإظهار ملامح فكره، والدلالة على سعة أفقه، وتنوع إبداعاته، وما تركه من أثر كبير في الحضارة العربية الإسلامية، والفكر العالمي.

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م
سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها